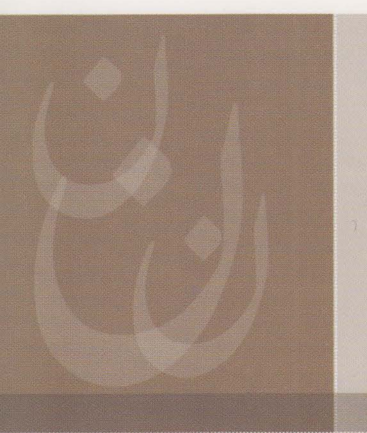


أدبيّات النّهوض



العبادة والعبودية في الرؤية والسلوك

لدى الإمام الخميني (قده)

حسن يحيى بدران




مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

العبادة والعبودية

في الرؤية والسلوك لدى الإمام الخميني (قده)

اسـم الكتـــاب: **العبادة والعبودية في الرؤية والسلوك عند الإمام الخميني (قده)**

المـــــؤلـــــف: حسن يحيى بدران

النـــاشـــر: **معهد المعـارف الحكميـة** (للدراسات الدينية والفلسفية)

إخراج الكتــاب: Idea Creation

عدد الصفحات: 148

القيـــــــاس: 21.5x14.5

تــاريخ الطبــع: تشرين الثاني ٢٠٠٧

العبادة والعبودية

في الرؤية والسلوك عند الإمام الخميني (قده)

حسن يحيى بدران

الطبعة الأولى

[١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م]



العنوان: حارة حريك - الشارع العريض - سنتر صولي - ط٢ شمالي
تلفاكس: ٠١ - ٥٤٤٦٢٢ - Email: almaaref@shurouk.org


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهـرس

الفصل الثالث

مقدّمة

تمهيد

سوف يلاحظ القارئ الكريم أثناء تصفّحه لهذا الكتيّب أنّ عمليّة مقاربة الموضوعات فيه استندت في الغالب إلى نصوص سرديّة من شهود عاينوا الحدث ودوّنوه بعد ذلك بأقلامهم. وسوف نتلمّس من خلال هذه النصوص طريقنا في محاولة استجلاء المعالم الروحيّة التي تفسّر لنا طبيعة السلوك الفردي والاجتماعي والسياسي للإمام(ره) الذي جسّد عبوديّة لله – تعالى – خالصة من كل الشوائب.

وبداية، يجدر بنا التنبّه إلى أنّ ما يسرده النص ويحكيه قد لا يكفي لتغطية كافّة جوانب الحدث لاسيّما في محتواه الداخلي، وإنّما يهتم برسم الإطار الخارجي دون التوغّل في المضمون، الأمر الذي قد يضرّ بالصورة النمطيّة للحدث ويفاقم من مشكلة الفهم، كالظمآن لا يزيده وصف الماء إلاّ عطشا؛ لهذا كان لا بدّ من وضع القارئ أمام المسؤوليّة التي يشترك في تجشّم عنائها مع الكاتب على السواء، فيدرك مثلا أنّ النص السردي إنّما يحكي صورة البناء الخارجي للعمل دون أن يسبر قيعان المعنى ونورانيّة العمل الذي لا يكاد يصل إلينا إلاّ همسا.

وقد تقرّر في المعارف التربويّة والأخلاقيّة أنّ «الأعمال الاختياريّة التي تصدر عن فاعل مختار، لها مظهر محسوس وجليّ للعيان نراه بأعيننا أو نسمعه بآذاننا، ولكنّ الذي يهمّ من هذه الأعمال الاختياريّة هو أساسها

وجذرها الذي يصدر الفعل استناداً إليه، أي دافع الشخص ونيّته التي يصدر العمل بموجبها»[1].

وبموجب هذه الحقيقة ينبغي أن ندرك - ونحن نتحرّى الجانب الداخلي والمستور من العمل - أنّ المساحة المخوّل للذهن إدراكها في هذا المجال قد تتضاءل باطّراد مع ارتفاع الرصيد الروحاني لدى الشخص الذي يصدر عنه العمل، وما ذلك إلاّ لأنّ «كمال عمل الأولياء عليهم السلام إنّما كان بواسطة الجهات الباطنيّة، وإلاّ فصورة العمل ليست لها الأهميّة الكثيرة؛ فإنّ نزول عدة آيات من السورة المباركة (هل أتى) مثلاً في مدح علي عليه السلام وأهل بيته الطاهرين ليس بسبب إعطاء قرص من الخبز وإيثارهم به، بل كان للجهات الباطنيّة ونورانيّة صورة العمل، كما أشار إلى ذلك في الآية الشريفة حيث يقول: **﴿إنّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورا﴾**[2]. بل إنّ ضربة عليّ عليه السلام التي هي أفضل من عبادة الثقلين ليست أفضليّتها بصورتها الدنيويّة بحيث لو صدرت من غيره لكانت أفضل أيضا، وإن كان نفس العمل بلحاظ موقعه - وفي حين تقابل الكفر والإسلام - كان مهمّا، ولعلّ الأمر لولا تلك الضربة كان سيؤول إلى تمزّق حبيكة جند الإسلام. ولكنّ العمدة في فضيلتها وكمال عمله عليه السلام إنّما كان بسبب حقيقة الخلوص وحضور قلبه عليه السلام في إتيانه هذه الوظيفة الإلهيّة، ولهذا اشتهر منه عليه السلام أنّه لمّا استولى الغضب عليه بتجاسر الملعون، امتنع عن قتله؛ حتّى لا يكون في عمله شائبة من الإنيّة، وجانب (يلي الخلقي)، مع أنّ غضبه وهو وليّ الله المطلق غضب إلهيّ، ولكنّه مع ذلك أخلص العمل عن التوجّه إلى الكثرة، وأفنى نفسه بكلّيّتها في الحقّ، فوقع العمل بيد الحق، والعمل بهذه الصفة لا يمكن أن يوزن بميزان، وأن يقابله شيء».[3]

---

[1]- الإمام الخميني قدوة، مجموعة من العلماء، ص٧٢.

[2]- سورة الإنسان، الآية ٩.

[3]- الإمام الخميني(ره)، سرّ الصلاة، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدولية، ط١، ١٩٩٥م، ص٧٠.

وربما يفوق دورُ القارئ هنا دورَ الكاتب؛ إذ عليه أن يلتقط حياة كاملة من خلال لمحة سريعة جاد بها النص، وعليه أن يستكشف مجاهل النص من خلال سبر حركته وتحوّلاته ومركزيّته، وأن يجاري لعبة الزمن وبنيته وتقلّباته التي تفوق بكثير ما يمكن أن يحصل خلال دورة حياة عاديّة لإنسان عادي. وبكلمة مختصرة، على القارئ أن يدرك أنّها الخطورة نفسها حين يحدّق من نافذة ضيّقة إلى مساحات شاسعة جداً من حياة لم يختبر تجاربها خارج دائرة النص. إنّ النص يختزل حياة العظماء، والحديث عن سرّ الخبرة الفاعلة والحيّة في أعمالهم لا يتاح إلاّ بمقدار ما يسمح به إشعاع الكلمة، وهو إشعاع يتيح لنا - لو أمكن التقاطه - أن نتذوّق طعم حياة يندر أن تتكرّر مرّة أخرى، وقد لا نشهد لذلك مثيلا في المدى التاريخي المنظور، ذلك أنّنا نؤرّخ لزمن الروح في ما يشبه انبثاقها الكلّي، ذلك الانبثاق الذي لمحنا بعضاً من فصوله ومعالمه في حركة إنسان استثنائي، هو الإمام الخميني المقدّس.

الفصـــل الأول

جذر في البناء الروحي

ولد الإمام السيّد روح الله الموسوي الخميني في العشرين من جمادى الثانية سنة ١٣٢٠ هجريّة الموافق عام ١٩٠٢ ميلاديّة بمدينة خُمَين في إيران. وقد تزامنت ولادته مع ذكرى ولادة الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام.

ونشأ في وسط عائلة دينيّة مجاهدة، والده هو العالم المجاهد آية الله الشهيد السيّد مصطفى الموسوي ابن العلاّمة الفاضل السيّد أحمد الموسوي، وأمّه هي العلويّة الطاهرة هاجر أحمدي. وقد استشهد والده وكان عمره حينذاك خمسة أشهر، وكان سبب استشهاده إصراره على التبليغ والتوعيّة، الأمر الذي أثار جلاوزة الشاه فنصبوا له كمينا في الطريق بين خمين وآراك واغتالوه.

أتقن الإمام(ره) القراءة والكتابة في صغره، وتعلّم الأدب الفارسي. وفي سنة ١٣٣٨ هجريّة أنهى دراسة المنطق، والنحو، والصرف عند أخيه الأكبر السيّد مرتضى الموسوي المعروف بـ «پَسَندِيدَه». فقصد مدينة أراك ودرس في حوزتها العلميّة التي كان يرعاها الشيخ عبد الكريم الحائري. وبعد هجرة الشيخ الحائري إلى مدينة قم المقدّسة بأربعة أشهر، رحل الإمام إليها، وسكن في مدرسة دار الشفاء حيث واصل دراسته فيها، فتتلمذ في علمي الفقه والأصول على يد الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، وأنهى دراسة السطوح بدرجة الاجتهاد، كما حضر درس السيّد حسين البروجردي بعد وفاة الشيخ

الحائري، ودرس علم الهيئة على يد الشيخ أكبر اليزدي، ودرس العرفان والحكمة والفلسفة على يد أستاذه ومرشده الشيخ الشاه آبادي.

وكان الإمام(ره) قد شرَع بتدريس الفلسفة والأخلاق وهو في السابعة والعشرين من عمره الشريف، ولم تمضِ فترة وجيزة حتّى أصبح من العلماء البارزين ومدرِّسي الحوزة العلميّة المعروفين. وتولّى تدريس الفقه والأصول في مرحلة البحث الخارج عام ١٣١٤ هجريّة، وعمره آنذاك ٤٤ سنة.

في الحديث عن النشأة العلميّة للإمام(ره) سوف نحاول تسليط الضوء على جانب محدّد، هو جانب التكوين الروحي الذي خضع له في مرحلة دراسته على الشيخ آبادي. وهو جانب من شأنه أن يثير في ذهن الباحث قدراً كبيراً من التوجّس؛ ذلك أنّ بِناء الفهم الصحيح لشخصيّة، كانت ولا تزال مثار جدل كبير في الوسط الثقافي والسياسي والديني، بفعل الأثر الذي أحدثته على مستوى صياغة التاريخ الحديث، أثر تمّ استعادته وتفجيره في لحظة زمنيّة ما، وفق رؤية متكاملة تنبع من مخزون تراثي بعيد الغور، سوف لن يسهل لنا تناوله وإدراك أبعاده من خلال بعض الاستشهادات العيانيّة دون أن نسلم من الوقوع في مزلّة التسطيح المبتذل وسذاجة العرض. فكيف إذا كان المعنيّ بالحديث هنا هو شخص الإمام الخميني(ره)! وكان مصبّ الحديث تحديدا هو البعد الروحي والعبادي لديه!.

على أنّه يمكن لنا بشيء من التفاؤل تجاوز هيبة الخوض في هذا المجال من خلال مقاربة أحد المعرّفات الأساسيّة لشخصيّة الإمام(ره) في بعديها الروحي والزمني، فنعمد إلى الكشف عن النموذج المحتذى بالشكل الذي يساهم في إبراز محتوى الشخصيّة نوعا ما، وإلى حدّ ما.

والمعرّف الذي يمكن أن يضعنا على الطريق السويّ لفهم شخصيّة الإمام الخميني يكمن في تعقّب البدايات الملموسة للنشأة الروحيّة التي درج عليها في أوائل مسيرة تحصيله المعنوي والروحي، بما في ذلك مواكبة أحد أبرز أساتذته في هذا المضمار بلا منازع، ألا وهو العالم العارف آية الله الميرزا

محمّد علي شاه آبادي(ره)، الذي كان له أثر روحي كبير عليه باعتراف الجميع.

فقد شكّلت هجرة الميرزا الشاه آبادي(ره) إلى قم - والتي ترافقت مع وجود مؤسّس الحوزة الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي فيها - حدثاً مفصليّاً هامّاً على مستوى التحوّل النوعي الذي طرأ على دراسة الإمام الخميني وتعليمه الروحي، «وكانت معظم دراسة الإمام(ره) على يدي الشيخ عبد الكريم الحائري، لكنّه في الوقت نفسه كان قد بدأ دراسة المعارف المعنويّة والعرفانيّة بشكل جاد، وقد تكفّل تدريسه العرفان المرحوم الميرزا الشاه آبادي(ره)[1]»، فنهل الإمام الخميني من هذا النبع العذب ما جعله يثني على أستاذه ثناء كثيراً بحيث إنّه لا يفتأ يذكره بكل احترام وتبجيل، ويستشهد بأقواله وأفعاله في كتبه وأحاديثه وعند كل مناسبة.

إنّ هذا يجعلنا نتابع القراءة بشغف، لنقف على اللحظة الأولى التي انبثق عنها ذلك الارتباط الحميم بين الأستاذ العارف والتلميذ الكبير، وسوف نحاول الدخول في أجواء الدرس الذي أشاع فيه الأستاذ المبادئ الروحية في وجدان تلميذه، وبالتالي استشفاف نواة التأسيس الأولى للبناء الروحي الذي سيقوم التلميذ لاحقاً بتعميمه وتحويله من روح فرديّة إلى روح جماعيّة تهيب بأمّة أن لا تقوم لله في ثورة إيمانيّة روحانيّة لا ينضب لها معين.

أستاذ الإمام في العرفان (لمحة تعريفيّة)

هو الميرزا محمّد علي الشاه آبادي(ره)، المولود في أصفهان عام ١٢٩٢ هجريّة، ابن الشيخ محمّد جواد من أبرز تلامذة الشيخ صاحب الجواهر(ره)[2].

---

[1]- المصدر نفسه، ص٢١ نقلا عن السيّد مرتضى بسنديده(ره).

[2]- تم الاعتماد في سيرة الميرزا الشيخ محمّد علي شاه آبادي على الفصل الأول من كتاب (العارف الكامل) كمصدر أساس. والكتاب يحتوي على شذرات من أقوال مجموعة من العلماء، تتعرّض لأحوال الشيخ العارف الشاه آبادي. وقد قمنا بتنسيقها وترتيبها وصياغتها بما يتناسب والغرض من تأليف هذا الفصل، وأشرنا إلى مَن ينقل عنهم المصدر في الهامش.

درس الشيخ الشاه آبادي مرحلة «المقدّمات» عند والده، ودرس الفقه والأصول في طهران عند حسن الأشتياني، كما درس الفلسفة عند هاشم الكيلاني، وتلقى العرفان عند أبي الحسن جلوه. ثمّ هاجر إلى النجف الأشرف حيث حضر درس الشيخ محمّد كاظم الخراساني «الملقّب بالآخند»، وشريعت أصفهاني، وحسين الخليلي. ثمّ قصد سامراء لحضور درس السيّد محمّد تقي الشيرازي.

رجع الشيخ إلى طهران عام ١٣٣٠ هجريّة على الرغم من معارضة بعض العلماء في العراق، حتّى لقد عبّر بعض أساتذته عن ذلك قائلا: «إنّ مغادرته العراق ستترك فراغا علميّا في الحوزة»[1].

وفي طهران نهض بمهام التبليغ في «مسجد سراج الملك»، ثمّ قصد قم المقدّسة سنة ١٣٤٧ هجريّة حيث درّس في حوزتها لمدّة سبع سنوات، عاد بعدها إلى طهران سنة ١٣٥٤ هجريّة وقام بمزاولة التبليغ وتدريس الفقه والأصول والفلسفة في «مسجد أمين الدولة»، ثمّ في المسجد الجامع.

مواقفه الجهاديّة

كانت السياسة المتّبعة من قِبَل شاه إيران «رضا خان» تقوم على أساس إيجاد تغيير جذري في البلاد ينحو باتّجاه نشر عوامل التغريب، وذلك على نمط السياسة التي اتّبعها أتاتورك في تركيا. وكانت العقبة الأساسيّة التي تحول دون قيام هذا المشروع التغريبي هي تشبّث الشعب الإيراني بالإسلام، وقد أكّد أتاتورك لرضا خان أنّ أكبر مانع يقف في وجه تغريب الشعب هم العلماء.

في سبيل ذلك، قامت السلطة بإجراءات صارمة، فمنعت تدريس القرآن والعلوم الإسلاميّة، وحظرت إقامة صلاة الجماعة والمراسم الدينيّة في

---

[1]- العارف الكامل آية الله العظمى الميرزا محمّد علي الشاه آبادي، تحقيق وتأليف مؤسسة العلوم والمعارف الإسلامية، ترجمة كمال السيّد وأحمد العبيدي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م. ص٧٤ نقلا عن الشيخ محي الدين الأنواري.

المدارس. كما أصدرت الأوامر بإيقاف صلاة الجماعة في المساجد، ومصادرة المنابر؛ لمنع الخطباء من مزاولة نشاطهم التبليغي. وشمل المنع عقد مجالس عزاء الحسين عليه السلام، فكان على كلّ من يريد إقامة العزاء الحسيني أن يفعل ذلك سرًّا عند الفجر، وأن يغلق باب منزله حتّى لا يشعر به أحد.

في مثل هذا الظرف العصيب كان الشيخ الشاه آبادي(ره) يمارس مهامه الدينيّة في طهران بعد انتقاله إليها من قم، وقد قام بنشاط تبليغي واسع تصدّى خلاله لإجراءات السلطة القمعيّة بكل صلابة وشجاعة، وواصل العمل الإسلامي على كافّة الميادين الدينيّة والسياسيّة والاجتماعيّة، متّخذا من المسجد منطلقا وخندقا للدفاع عن الإسلام.

أصرّ الشيخ(ره) على مواصلة الوعظ والإرشاد والتبليغ متحدّيا القرارات الجائرة بحزم، ولم يألُ جهدا في توعية الناس وتنبيههم على خطر رضا خان، وكان يقيم مجلس العزاء في المسجد الجامع علنا، ويرتقي المنبر ويخطب غير عابئ بمخطّطات السلطة ومقرّراتها. وكان يقول: «متى ما أصبح الشاه مجوسيًا وأعلن كفره، أو قال إنّي يهودي أو نصراني، ورفع ناقوسا على مأذنة هذا المسجد، فسأقوم بترك هذا المكان وأذهب إلى مسجد المسلمين لأقيم الصلاة فيه. ولكن ما دام الناقوس لم يدقّ هنا بعد، والشاه لم يعلن مجوسيّته وكفره، فإنّي - كإمام للصلاة - أصلّي هنا»[1].

بهذه الجرأة النادرة كان الشيخ آبادي يواجه رجال الشرطة القادمين إلى المسجد لمنع إقامة مراسم العزاء بذريعة عدم الحصول على إجازة من وزارة الثقافة. فيطلب من أحد الحضور أن يقرأ زيارة عاشوراء، وترتفع أصوات الناس بالبكاء والنحيب ويُقام العزاء في السوق كلّه، ويرتفع صوت الشيخ مردّدا: «قولوا للحوذي الصعلوك أن لا يمنع الناس من إقامة العزاء، وقولوا لوزير الثقافة أن يغلق أبواب وزارته، فهنا وزارة ثقافتنا»[2].

---

[1] - المصدر نفسه، ص٦١ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي.

[2] - المصدر نفسه، ص٩٨ نقلا عن الحاج محمود أخوان.

وحين صودر المنبر من المسجد الذي كان الشيخ الشاه آبادي يزاول مهامه التبليغيّة فيه، خطب الشيخ(ره) في الناس بجرأة نادرة قائلا: «أريد أثبت أنّ هذا الحوذي حمار، وذلك أنّه يتصوّر أنّ المنبر هو الذي يتحدّث! في ما عليه أن يفهم أنّ الذي يتكلّم هو أنا، وليس المنبر»[١].

وقد بلغت إجراءات رضا خان حدّا لا يطاق بوضعه القيود على المساجد والحسينيّات، وإصداره قرارا باستبدال الملابس الوطنيّة بالملابس الغربيّة، حيث تمّ إبلاغ حكّام الولايات بإلزام المواطنين اعتمار القبّعة، وحُدِّدَت ألوان الملابس، وأسلوب لبس الأحذية وأنواعها. وبلغ الأمر ذروته حينما قرّرت السلطة فرض السفور على النساء.

وإزاء ذلك، ضاقت السبل أمام الشيخ(ره)، فعمل على توحيد موقف العلماء في مواجهة مخطّطات النظام وفضحه، وتوجّه إلى مرقد السيّد عبد العظيم الحسني[٢] واعتصم هناك تعبيرا عن اعتراضه على قرارات السلطة، واستمرّ اعتصامه في المرقد مدّة أحد عشر شهرا.

كان يخطب في الناس، ويقول: «إنّ هذا الحوذي الخبيث ينوي بفرضه السفور على النساء اجتثاث الإسلام من جذوره. وقد اختار ذلك؛ لأنّه وجد أنّ القضاء على الإسلام غير ممكن حتّى لو قتل المئات من علمائه. أمّا فرض السفور، فإنّه سيؤدي إلى زوال العفّة، فهو يريد القضاء على الدين؛ لأنّ الدين قائم على العفّة والحياء»[٣]. ولم يدع الشيخ(ره) وسيلة إلاّ واعتمدها لفضح مخطّطات الحاكم الجائر دون أن يعبأ بالأخطار المحدقة به.

وفي ردّه على سؤال وجّهه إليه أحد كبار علماء النجف الأشرف حول اعتصامه، يحدّد الشيخ الشاه آبادي طبيعة الموقف من حكم الشاه، ويكشف عن السبب في معارضته له، وهو حفظ أمانة الإسلام أوّلاً وأخيراً، فقد جاء في جوابه: «نحن ورثة دين استشهد من أجله منذ زمن النبي الأكرمﷺ وحتّى اليوم

---

[١]- المصدر نفسه، ص٦٨ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي.

[٢]- الكائن في مدينة الري جنوب العاصمة طهران.

[٣]- العارف الكامل، مصدر سابق، ص٦٣ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي.

- فضلا عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام وأصحابهم - آلاف العلماء والمؤمنين، وما وصلت إلينا ثمار هذا الدين الحنيف إلاّ بفضل هذه الدماء الزكيّة وتلك التضحيات الجسيمة. ونحن الآن مسؤولون في الدفاع عنه والتضحية في سبيله ما دامت الأرواح في أجسادنا، علينا أن نصون هذه الشجرة الطيّبة التي سقاها الشهداء بدمائهم؛ لأنّها تتعرّض اليوم لخطر التحريف والاندراس من قبل حكومة هذا المتجبّر. نعم، علينا الحفاظ على هذه الأمانة بكلّ وجودنا، وأن لا نسمح بانتهاك حرمة هذا الدين، وليست دماؤنا بأقنى من دماء الماضين»[1].

وقد سعت حكومة رضا خان إلى إنهاء اعتصام الشيخ(ره) بمختلف الطرق والوسائل، حتّى إنّ رضا خان نفسه أبدى استعداده للقاء الشيخ في المرقد والتفاوض معه، وأرسل إليه العربة الملكيّة لتعيده إلى منزله. ولم يكن الشيخ(ره) بالشخص الذي تخدعه مثل هذه الأعمال، فليس في الأمر موقف شخصي من رضا خان، وإنّما هي مصلحة الإسلام فحسب. فكان يفتي بحرمة جميع أشكال التعاون مع رضا خان ويرفض حتّى مجرّد استقباله[2]. وكان يتحدّث إلى الناس عن حقيقة رضا خان ويفضحه بقوله:«إنّ رضا خان أجير للبريطانيين، وإنّ مهمّته محو القرآن والإسلام، وإنّ تصدّيه لي ليس لأنّي أرتدي هذا الزي، إنّما لأنّني أبلّغ رسالة القرآن. إنّني أعلن للعالم صراحة أنّكم إن لم تتحرّكوا، فإنّ الخبيث سوف يقضي على الإسلام»[3].

عمل الشيخ من خلال اعتصامه على بثّ الوعي بين الناس، وأوضح الهدف من تحرّكه، ونبّه على خطورة حكومة رضا خان على الإسلام بجرأة يندر وجود مثيلا لها. فكان متصلّبا شديدا في ذات الله. وكان مجاهدا بكل ما تحويه هذه الكلمة من معنى.

---

[1] المصدر نفسه، ص٤٥ نقلا عن الشيخ نورالله الشاه آبادي.

[2] المصدر نفسه، ص٢٨ نقلا عن الشيخ محمّد الشاه آبادي.

[3] المصدر نفسه، ص٥٦ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي.

تطلّعاته الاجتماعيّة

عاش الشيخ آبادي هموم ومشكلات أمّته، ورسم مخطّط عمل يهدف إلى تحسين أوضاع المسلمين الإجتماعيّة، ولم يدّخر وسعا في العمل على تنفيذه. وأهم ما جاء في هذا المشروع:

١ - تأسيس مجلة دينيّة من أجل نشر الأهداف العليا للإسلام.

٢ - الاقتصاد في المعيشة والابتعاد عن الإسراف، وهي من أهم الأمور التي دعا إليها الإسلام.

٣ - تأسيس شركة تقوم على أساس القواعد العلميّة، بهدف إيجاد سوق تجاري خال من الجشع والاستغلال، تعتمد على تنميّة الزراعة والصناعة الوطنيّة ودعم منتوجاتهما، وبالأخص الأقمشة والألبسة المصنوعة محليًا.

٤ - إيجاد مشروع القرض الحسن بهدف سدّ الأبواب بوجه القروض الربويّة التي تهدم الدين والدنيا.

٥ - ضمان حقوق أفراد المجتمع ضدّ كل أشكال التجاوز غير المشروع[١].

وقد تطلّع الشيخ(ره) في توجيهاته هذه إلى تحصين المجتمع وتحريره من كافّة أشكال الارتهان الخارجي، سيّما في الجانب الاقتصادي منه. وكتب في مقدّمة كتابه «شذرات المعارف» يقول: «يتصوّر بعضهم أنّ الأوروبيّين خدم لنا!! ويقولون: إنّهم يكدحون، ونحن نستخدم ما ينتجون دونما جهد. لكنّ هؤلاء غافلون عمّا بأنفسنا؛ فهم الأوروبيّين يشترون الصوف منّا بعشر ريالات؛ ليبيعوننا القماش بخمسين ريالا. ويشترون حمل القطن منّا بخمسين تومانا؛ ليبيعوننا متر القماش من القطن بخمسين تومانا. وهذا هو الاستغلال والاستعمار بعينه. علينا أن نكدح ونأكل ونلبس مما نصنعه بأيدينا، ونسدّ حاجاتنا بأنفسنا، وليس أن نكون مرهونين إليهم»[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص١٧٧.

[٢] المصدر نفسه، ص٥٥ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي.

يعلّق الشيخ هاشمي رفسنجاني على كلام الشيخ(ره) بقوله: «وإنّ المرء ليشعر بالدهشة، من إنسان عارف، عندما يخاطب الناس بشأن مشكلات المجتمع قائلا: إنّ حالنا مؤسف حقّا، نبيع قطننا للأجنبي، المن بست ريالات، ثمّ نعود لنشتري منتوجاته منه، المن بستة آلاف ريال!. لا أدري إن كان السعر كذلك حقّا! أم أنّه أراد أن يبيّن لهم حجم الحيف والاستغلال اللذين كان الأجنبي يمارسهما عليهم. ثمّ أضاف قائلا: لماذا يتخلّف المسلمون في الصناعة هكذا؟ ولماذا حالنا هكذا؟!.

كان بعضهم يردّ عليه قائلا: إنّهم يعملون كالخدم لنا، يأخذون قطننا، ثمّ يصنعون منه الملابس ليعطونا إيّاه جاهزا!. فكان الشيخ يعترض على مثل هذا الكلام بقوله: أيّ كلام فارغ هذا؟! كيف يصحّ أن تبدّد ثروة العالم الإسلامي بهذا الشكل!!. هكذا كان عرفانه، إنّه لا يهمل التقدّم والنموّ المادّي في حياة الإنسان والمجتمع»[1].

لقاء الإمام الخميني(ره) بالشيخ (ره)

كان الإمام الخميني مستغرقا في طلب المعارف الدينيّة والفلسفيّة في قم عشيّة حلول الشيخ الشاه آبادي فيها عام ١٣٤٧ هجريّة، وعلى الرغم من أنّ الدراسات الفلسفيّة لم تكن تلقى إقبالا مشهودا في الحوزات العلميّة وقتذاك، فقد كان الإمام(ره) قد اقتحم هذا الميدان بخطى ثابتة، وقطع شوطا كبيرا في دراسة الفلسفة، وتعمّق في دراسة المطالب الحكميّة من منابعها الأساسيّة، فحظي بثروة علميّة وافرة في نطاق الحكمة المتعالية.

ولعلّ دراسة هذه المطالب الحكميّة أثارت في نفس الإمام فضولا مضاعفا نحو الخوض في المطالب العرفانيّة والمعارف الإلهيّة، فاستشعر بنهم علمي وحدس فطري توقا شديدا واندفاعا قويّا إلى الاستزادة الروحيّة التي تتطلّب وجود المعلّم والمربّي في هذا المجال بالخصوص، وما زال يراوده إحساس

[1]- المصدر نفسه، ص٣٦ نقلا عن الشيخ هاشمي رفسنجاني.

قويّ بأنّه يفتقد شيئا ما، ولا يفتأ يبحث عن ضالّته، حتّى أحسّ به بعضُ مَن جاوره.

وما إن حلّ الشيخ آبادي في قم حتّى شرع في التدريس. حينها تقدّم أحدهم[1] من الإمام الخميني قائلا: «إنّ مَن تبحث عنه قد جاء إلى قم»[2]. وفي هذه المرحلة بالذات بدأ الإمام(ره) تتلمذه على يدي العارف الكبير الشيخ آبادي.

يتحدّث الإمام الخميني(ره) عن تلك اللحظة التي جمعته بأستاذه في قم، فيقول: «عندما كنت في الحوزة كان يراودني إحساس بأنّي أفقد شيئا، فكنت لا أفتأ أبحث عن ضالّتي، حتّى اطّلعَ الميرزا محمّد صادق الشاه آبادي على وضعي، فالتقى بي ذات يوم في مدرسة الفيضيّة وقال: إن كنت لا تزال تطلب ضالّتك فستجدها في تلك الحجرة.

سألته: من تعني؟

فقال: الشيخ الشاه آبادي، إنّه جالس هناك، وهو ضالّتك التي تبحث عنها.

وعندما وصلت إلى الحجرة، وجدته جالسا مع المرحوم الحائري يتناقشان، وإلى جانبهما عدد من الحضور يصغون إلى النقاش وربّما يشارك أحدهم، فوقفت في زاوية أنتظر، فلمّا انتهى النقاش نهض المرحوم الشاه آبادي متوجّها إلى منزله، فتبعته ورافقته في طريقه، ثمّ طلبت منه - ونحن في الطريق - أن يدرّسني، لكنّه أبى، والناس في الطريق يحيّونه أو يسألونه، وكان يجيبهم بأجوبة لا تناسب مستوياتهم، فقلت له:

إنّ أجوبتك تستعصي على أفهامهم، فلِمَ تفعل ذلك؟

فقال: دعها تطرق أسماعهم[3].

---

[1]- هو الحاج محمّد صادق الشاه آبادي ابن أخ الشيخ العارف الشاه آبادي.

[2]- العارف الكامل، مصدر سابق، ص٩٢ نقلا عن الحاج محمّد صادق الشاه آبادي.

[3]- عرف عن الشيخ الشاه آبادي أنه كان يتكلم مع جميع شرائح المجتمع، ويوضح لهم المعارف والعلوم الدينيّة وحتّى العرفانيّة، وكان يؤمن بأن أمثال هذه المطالب العرفانيّة يمكن إيصالها إلى أفهام العامّة على الرغم من صعوبتها.

حتّى إذا وصلنا قريبا من منزله، وافق على إعطائي دروسا في الفلسفة، فقلت له:

أنا لا أريد الفلسفة، إنّ ضالّتي شيء آخر، أريد درساً في العرفان.

فامتنع، حتّى إذا وقف عند عتبة باب منزله قال للمجاملة: تفضّل إلى البيت.

فوافقت على الدخول كي أصل معه إلى نتيجة، وما إن دخلت المنزل حتّى سيطر عليّ شعور بأنّي لا أستطيع التخلّي عنه، فتوسّلت إليه كثيرا حتّى وافق، وعيّن لي ساعة من عصر كل يوم، وبهذا بدأت بتلمذتي عليه»[1].

دراسة الإمام(ره) على الشيخ(ره)

تقدّم أنّ الشيخ آبادي اشتغل بالتدريس خلال المدّة التي قضاها في قم المقدّسة، وقد تتلمذ على يديه كبار العلماء، وكان من أبرزهم الإمام الخميني(ره). وعلى الرغم من أنّ الشيخ كان قد ضمّ إلى جعبته ذخيرة وافرة من علوم الفقه والأصول والفلسفة، فكان فقيها أصوليّا وفيلسوفا عارفا، إلاّ أنّ اهتمام الإمام تركّز بالدرجة الأولى على تحصيل المعارف الإلهيّة على يديه، فراح ينهل الزاد المعنوي بإشراف أستاذه قرابة السبع سنوات، يحضر الدرس وحيدا، وربّما التحق به واحد أو اثنان من الطلبة، ولكن سرعان ما ينصرفون.

بذل الإمام عناية خاصّة بدرس الشيخ الشاه آبادي، وأكبّ على التحصيل الجاد بين يديه، وكان يتحدّث عن اهتمامه بملازمة درس شيخه بإعجاب كبير، يقول (ره): «في البدء كنت أحضر درسه في العرفان فقط، ثمّ صرت أشترك إلى جانب ذلك في درس الأخلاق الذي كان يلقيه عند أداء الصلاة، بل صرت أتّبعه أينما ذهب لأستمع إلى دروسه، وكنت أدوّن جميع ما أسمعه منه سواء في دروسه العامّة أم في درسه الخاص الذي كان يلقيه عليّ. وبهذا

---

[1]- العارف الكامل، مصدر سابق، ص٦٦ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي (ابن الميرزا الشاه آبادي) عن الإمام(ره) بعد لقائه به برفقة الشيخ هاشمي رفسنجاني.

توطّدت علاقتي بالشيخ شيئا فشيئا، ويمكنني القول إنّي لم أرَ في حياتي كلّها روحا أرقّ من روحه، لقد كان لديه تلامذة كثيرون، لكنّهم لم يكونوا ملتزمين بحضور دروسه جميعا، فبعضهم يحضر ثلاثة أيّام في الأسبوع، وبعض آخر لا يحضر إلاّ درسا واحدا كلّ أسبوع. أمّا أنا فقد واظبت على ملازمته طوال السبع سنوات التي مكث فيها بقم، فتتلمذت عليه طوال تلك المدّة، وحضرت دروسه المختلفة لحين مجيئه إلى طهران، حيث بقيت أواصل دراستي في قم»[1].

وحول انضباط الإمام ودقّة التزامه بمواعيد الدرس يقول الشيخ بني فضل:«.. لم يتأخر الإمام الخميني(ره)عن موعد الدرس يوما أبدا. وهذا هو دأبه عندما كان طالبا أيضا، فقد كان منتظما يحضر دروسه في وقتها المحدّد. وقد أشاد الشيخ الشاه آبادي بالتزام الإمام ودقّته في الوقت، وقال عنه ذات مرّة: إنّ روح الله روح الله حقّا، لم يحدث أن تأخر مرّة عن الدرس وجاء بعد البسملة، فما قلت: بسم الله، يوما، إلاّ وكان حاضرا»[2].

لم يدع الإمام فرصة، إلاّ اغتنمها للقاء أستاذه بما في ذلك أيّام العطل: الخميس والجمعة. فكان ينهل خلالهما على يدي أستاذه من كتاب «مفتاح الغيب»، و«منازل السائرين»، وأيضا كتاب «مصباح الأنس» الذي لم يكمله بسبب انتقال الأستاذ إلى طهران واستقراره فيها[3]. وخلال فترة الدراسة تلك، كتب الإمام حاشية على «مفتاح الغيب»، وكان قد وضع حاشية على حديث رأس الجالوت، أعقبها لاحقا بشرح مستقل لهذا الحديث[4].

---

[1]- المصدر نفسه، ص٦٧ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي عن الإمام(ره).

[2]- المصدر نفسه، ص٤١ نقلا عن الشيخ بني فضل.

[3]- يقول الإمام الخميني في مطلع تعليقته على كتاب مصباح الأنس: «قد شرعنا في قراءة هذا الكتاب الشريف لدى الشيخ العارف الكامل، أستاذنا في المعارف الإلهية، حضرة الميرزا محمّد على الشاه آبادي الأصفهاني، دام ظله في شهر رمضان المبارك سنة ١٣٥٠». وجاء في الصفحة ٢٥١ من الكتاب نفسه: «إلى هنا قرأت الكتاب عند شيخنا العارف الكامل الشاه آبادي، روحي فداه، وقد اتفق انتقاله إلى طهران فصرت محروما من فيضه ظله». انظر: الإمام الخميني، تعليقات على شرح فصوص الحكم ومصباح الأنس، ط١، رمضان ١٤٠٦ هـ. ق.، مؤسسة باسدار اسلام.

[4]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٩.

يقول الإمام(ره) بعد سفر الشيخ إلى طهران: «كنت أغتنم كل عطلة تتخذها الحوزة، كالعشرة الأول من المحرّم، أو في شهر رمضان، وأذهب إلى طهران لأحضر دروسه وأصغي إلى أحاديثه، سواء ما يعقد منها في بيته أم في المسجد، فألازمه ما دمت في طهران، لا أفارقه ما أمكنني ذلك»[1].

وقد تعلّقَ الإمام بشيخه العارف - منذ أن تتلمذ عليه - تعلّقا جعله لا يبارح درسه في العرفان، فلازَمَه كما لو كان ابنه، وكان يقضي بعضَ شؤونه حتى كأنّه واحد من أهل بيته[2]. ولم يعد خافيا حجم التأثير الذي تركه الشيخ على شخصيّة الإمام نظرا لِما كان يحظى به الشيخ من سموّ في خصاله ونبل أخلاقه، فكان الإمام يتحدّث عن إعجابه الشديد بالميّزات الروحيّة لهذا الرجل العظيم، ويعبّر عنه بقوله «ما رأيت في حياتي روحا أرقّ من روحه»[3].

وهو سوف لن يفتأ يذكر أستاذه في كتاباته بعبارة: «الشيخ العارف الكامل روحي فداه». حتّى قال الشهيد مطهري: لم أسمع أبدا أنّ الإمام ذكر المرحوم الشاه آبادي إلاّ وقال: (روحي فداه). وقد بلغ مستوى الإحترام الذي يكنّه الإمام لمقام أستاذه بحيث كان يقول فيه: «إنّ المرحوم الشيخ الشاه آبادي لطف ربّاني». و«ما رأيت إنسانا بهذا القدر». إنّ سلوك الإمام هذا إزاء أستاذه ينمّ عن خلق عظيم اقتبسه الإمام بلا شكّ من نور شيخه، ولا عجب أن يتلمّس الشيخ العارف - وهو الأستاذ الشامخ في عرفانه - ثمرات الروحانيّة الشفّافة التي أشرف بنفسه على غرس بذورها في قلب تلميذه، فكان يثني على الإمام، - وهو ما زال طالبا يحضر درسه -، فيقول فيه: إنّه إنسان فريد.

استضاء الإمام بقبس نوراني من تعليم شيخه وإرشاداته وأنفاسه الروحانيّة، فاستنارت روحه وأشرقت عشقا وعرفانا في محضر درس الأستاذ. وما أروعه من تعبير يجود به الشيخ بحقّ تلميذه إذ يقول: «عندي تلميذ اسمه

---

[1]- العارف الكامل، مصدر سابق، ص٦٧ - ٦٨ نقلا عن الشيخ نصرالله الشاه آبادي عن الإمام(ره).

[2]- المصدر نفسه، ص٩٣ نقلا عن الشيخ محمّد صادق الشاه آبادي.

[3]- المصدر نفسه، ص٧٣ نقلا عن الشيخ محي الدين الأنواري.

روح الله، لو درّسته بضع دقائق فقط لما قال: هذا قليل. ولو درّسته عدّة ساعات لما قال: هذا يكفي»[1]. ويلمّح الإمام إلى سرّ هذا الاهتمام الكبير بدرس أستاذه بقوله: «لو بقي الشيخ آبادي يدرّس سبعين سنة لحضرت دروسه كلّها؛ لأنّ له في كلّ يوم حديثا جديدا»[2].

أثر الشيخ على مجمل نهضة الإمام

إنّ المعارف الإلهيّة العليا التي تلقّاها الإمام على يدي الشيخ الشاه آبادي ساهمت إلى مدى بعيد في صقل شخصيّته الروحيّة، وجدير بتلك المعارف أن يكون لها هذا التوظيف الكبير على مستوى صياغة المحتوى الإيماني العميق لروح الإمام، والذي تتفرّع عنه كل البناءات الأخرى. يقول الشيخ رفسنجاني: «إذا كان الإمام الراحل لا يخشى أحدا إلاّ الله، ولا يقدّم أمرا إلاّ الواجب، ولا يرى من عظيم في هذه الدنيا إلاّ الله - عزّ وجلّ - فيراها حقيرة جدّا لا تساوي جناح ذبابة، فذلك بفضل علم الإمام وعرفانه اللذين اقتبس الجزء الأكبر منهما بلا شكّ من المرحوم الشاه آبادي»[3].

لم يكن الشيخ الشاه آبادي عارفا كاملا فحسب، ولم يقتصر نشاطه التبليغي على الجانب التربوي والتعليمي داخل جدران الحوزة العلميّة، بل خاض لجّة المجتمع مصلحا اجتماعيّا، واقتحم أبواب السياسة ثائرا ومجاهدا، حتّى لا يكاد يدانيه أحد في شجاعته وصلابته وثباته في الحقّ.

فقد تصدّى الشيخ الشاه آبادي بشدّة لمحاولات السلطة الساعية إلى إقصاء الدين وفصله عن معترك الحياة العامّة بكافّة أبعادها السياسيّة والاجتماعيّة، واعتبر أنّ هذا الفصل هو انحراف عن الإسلام، ويصبّ في مصلحة الأهداف الآنيّة للسلطة الجائرة. بل إنّ الإيمان بشموليّة الإسلام فكرا وسلوكا هو دليل صحّة عرفان السالك، وبالتالي، فقد «شكّلت الشموليّة التي

---

(1)- المصدر نفسه، ص٤١ نقلا عن الشيخ جعفر السبحاني.

(2)- المصدر نفسه، ص٣٢ نقلا عن الشيخ محمّد الشاه آبادي.

(3)- المصدر نفسه، ص٣٨ نقلا عن الشيخ هاشمي رفسنجاني.

توفّرت عليها أفكار الشاه آبادي شاهدا على صحّة عرفانه، فعندما يصبح شخص ما عارفا، ثمّ يتحوّل إلى زاهد متصوّف انعزالي، فليس ذلك إلاّ دليل على انحراف عرفانه، وإنّه ينظر إلى عالم الواقع من زاوية خاطئة، وإلاّ فلو كان توجّهه هذا صحيحا لفعل النبيﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام مثل ذلك»[1].

إنّ التلازم بين العرفان من جهة والإصلاح الاجتماعي والسياسي من جهة أخرى هو من علائم صحّة السلوك العرفاني وعدم انحرافه عن الصراط المستقيم. وإنّ الاهتمام بالشأن السياسي والاجتماعي هو من لوازم السلوك الصحيح إلى الله - تعالى -.

بهذا يقدّم لنا الشيخ الشاه آبادي نموذجا رائدا في الدور التبليغي الشامل الملقى على عاتق العلماء، فلا يجوز تنحية الشأن الاجتماعي والسياسي جانبا بذريعة التفرّغ لطلب العلم واكتساب ملكة العرفان، بل إنّ ذلك الإهتمام هو في صلب الدين والعرفان. وكان يعتقد بأنّ «الإسلام دين وسياسة، وبأنّه يهتمّ بجميع الشؤون السياسيّة، وكانت أفكاره هذه في وقت كان علماء الدين فيه قد نأوا بأنفسهم بعيدا عن الشأن السياسي؛ لأنّ بهلوي أراد لهم أن يكونوا جلساء بيوتهم. فلا شيء في الإسلام في رأيه ينفصل عن السياسة، حتّى الصلاة والصوم والحج والخمس والزكاة والطهارة؛ ذلك أنّ الإسلام إيديولوجيّة شاملة لجميع البشر»[2].

وإنّ الدور الذي قام به الشيخ الشاه آبادي «في ما تلا آب ١٩٤١ - وهي مرحلة قمع وإرهاب - دور جدير على الصعيد السياسي والاجتماعي وكذلك العرفاني، حيث أخذ عرفان هذا الرجل في تلك المرحلة بالذات يتجسّد، ويعطي ثماره ويلقي بظلاله على المجتمع كشجرة طيّبة ثابتة لا تزال تجود بالثمر»[3] .

---

[1]- المصدر نفسه، ص٣٥.

[2]- المصدر نفسه، ص٣٦.

[3]- المصدر نفسه، ص٣٤.

كما كان لجهاد الشيخ العارف الأثر الكبير في تمهيد الأرضيّة للثورة المباركة التي سيعمل الإمام(ره) على تفجيرها لاحقا، ليس فقط من خلال التعليم الذي خضع له الإمام بين يدي أستاذه، وإنّما أيضا من خلال الوعي الذي بثّه الشيخ الشاه آبادي في نفوس المجاهدين من أبناء الثورة قولا وسلوكا وجهادا بحيث إنّه أوجد من خلال ذلك تيارا ثوريّا قويّا في قلب طهران.

يقول الشيخ رفسنجاني: «عندما جئت إلى طهران وكانت المواجهة قد بدأت، تعرّفت من خلال نشاطاتنا الجهاديّة إلى الكثيرين في البازار (السوق) وفي أماكن أخرى، فأحسست حينها أنّ الجميع كانوا متأثرين بشكل أو بآخر بدروس الشيخ الشاه آبادي وخطبه. وفي المحاضرات التي أقمناها بطهران في تلك المرحلة التقيت بتلامذة له كان يبدو عليهم إنّهم ذو تجارب وينقلون تجاربهم إلى الآخرين، نعم لقد أوجد تيارا كهذا»[1].

وإنّ الحديث الآنف حول جهاد الشيخ الشاه آبادي وجهوده، يؤكّد لنا حقيقتين أساسيتين:

إحداهما: الكشف عن وجود علائق ما، بين موضوعتي العبادة والسياسة، من شأنها أن تفسّر لنا كيف أنّ العمل السياسي الهادف، لا يكون ناجزا لجهة الصدقيّة في النهوض والجديّة في الإنجاز والفاعليّة في التغيير ونحوها من مقوّمات، إلاّ بمقدار ما يستمد من الدين، وتحديدا حينما يكون العمل السياسي صدى للبعد المعنوي، وتكون المنطلقات والدوافع إلهيّة بحتة.

والثانية: صلابة الموقف في مواجهة السلطة الجائرة، وعدم الرضوخ والمساومة أمام ضغط العروض ووسائل الترهيب والترغيب. ومهما يكن، لا يمكن إنكار حجم التأثير الذي أوجده الشيخ في روحية التلميذ في هذا المجال.

وسوف نتلمّس أثر هذين العاملين بوضوح شديد في شخصيّة الإمام الخميني(ره) والتي صقلت بفعل الاطمئنان التام إلى المبادئ الدينيّة الراسخة، ونرى انعكاس كل ذلك لدى مطالعتنا لحركة الإمام الخميني(ره)

[1]- المصدر نفسه، ص٢٥.

الجهاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة.

يُسأل الإمام الخميني(ره): كيف رأيت المرحوم الشيخ الشاه آبادي؟ فيجيب: «لم يكن له نظير، ليس في الفلسفة والعرفان وحسب، بل حتّى في السياسة»[1].

وهذه الإضافة الأخيرة تكشف عن عنصر آخر مهم، له أثره البيّن في شخصيّة الإمام الخميني(ره) الجهاديّة، والتي يعود الفضل فيها - مضافا إلى موهبة الإمام الذاتيّة، وروح الإباء والثورة ضد الظلم التي زرعها والده في نفسه باستشهاده دفاعا عن المظلومين ومناهضة الإقطاعيّين في خمين - إلى توجيهات أستاذه الشيخ الشاه آبادي الذي كان في طليعة من قاوم حكومة رضا خان، أليست هذه عوامل مهمة لإعداد الطالب لقيادة ثورة طويلة الأمد كالتي قادها الإمام؟! إنّ الشيخ الشاه آبادي لم يعلّم الإمام الراحل العرفان فحسب، بل علّمه الجهاد والثورة أيضا[2].

وينبغي من الآن فصاعداً أن ننظر إلى أهم إنجازات الإمام الخميني(ره) على مستوى الشأن العام، والمتمثّلة في تأجيج ثورة إسلاميّة مباركة، سوف تقود لاحقا إلى بناء دولة قويّة عزيزة قادرة على مقارعة طواغيت العالم بشموخ وإباء نادرين، فنرى كل هذا على أنّه نتاج ذلك البناء الروحي الذي تنهض عليه كل الأسس الأخرى. وإنّ هذين البنائين سوف لن ينفصلا عن بعضهما البعض في وجدان الإمام، بشهادة أحد الربّانيّين: «يوجد عقدان متميزان في عمر الإمام الراحل(ره)، عقد امتاز باستئناس الإمام بعالم الغيب والعرفان، وقد بدأ بوصول الشيخ الشاه آبادي إلى قم وتتلمذ الإمام على يديه وذلك سنة ١٣٤٧ هجريّة، وعقد آخر امتاز باستئناسه بعالم الشهادة وقيامة الأمة، وقد بدأ بتأجّج الثورة الإسلاميّة سنة ١٣٩٢ هجريّة»[3].

---

[1]- المصدر نفسه، ص٥٩ نقلا عن الشيخ نصر الله الشاه آبادي.

[2]- المصدر نفسه، ص٨٥ نقلا عن الأستاذ علي الدواني (بتصرف).

[3]- المصدر نفسه، ص٨٣ نقلا عن الشيخ عبد الله الجوادي الآملي.

الفصـــل الثانـــي

تجلّيات العبادة في نطاق السلوك الفـردي للإمام(ره) (عبادة الروح)

تصوّرات حول العبادة

العبادة بصفتها طقسا دينيّا، هي عبارة عن نشاط يقوم به الإنسان تجاه خالقه، يهدف إلى بناء علاقة تتوزّع فيها الأدوار توزيعا يتناسب والموقع الذي يحتلّه كل واحد من الطرفين: موقع الخالق الذي بيده كلّ سبب وقدرة في الوجود، وموقع الإنسان الذي لا يملك من أمر نفسه - فضلا عن غيره - شيئاً[1].

وهذا الموقع يفترض تلقائيًا طبيعة الموقف الذي ينبغي أن يُتّخذ: الموقف الإلهي في هذه المعادلة يتمثّل في العطاء والبذل، والموقف الإنساني يتمثّل في الاستمداد والأخذ. وما يعقد الوصال بين طرفي العلاقة هو فعل العبادة. على أنّ العبادة هنا ليست سلوكا فحسب، وإنّما هي بالإضافة إلى ذلك معرفة وعاطفة:

أ - العبادة معرفة ويقين:

وهي تتمثّل في انبعاث نور داخلي يحاكي الفطرة ويستحثّها للعمل في اتجاه تحقيق إمكاناتها، ويرتقي بها في سير صعودي يهدي العبد إلى مرحلة

---

[1]- هذا من الناحية الشكلية وبداعي التمهيد، وإلا فالعلاقة بين الخالق والمخلوق تتخذ بعدا أعمق - كما سنرى - في نظر الإمام(ره) يتمثل في العلاقة بين عين الوجود من جهة وعين الربط والتعلق من جهة ثانية، ويعبّر عنه بالحقيقة والرقيقة.

الاطمئنان واليقين، فهي سلوك معرفي منبثق عن بصيرة باطنيّة لا تقف عند حدود الإلمام الظاهري بأحكام الدين ومفاهيمه، ولا تتجمّد عند الجانب العقلاني والفكري، وإنّما تستدعي نفوذ الوعي والبصيرة في دلالات الطقس ومغازيه الظاهرة والباطنة. ولعلّه بهذا المعنى الذي يكشف عن كمال الفعل وتمامه، جُعلت العبادة في القرآن الكريم سببا غائيّا للخلق: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، وجعل اليقين سببا غائيّا للعبادة: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ الْيَقِين﴾[2].

ب - العبادة عاطفة وخبرة روحيّة:

وهي تتمثّل في خضوع العبد وانقياده لأمر خالقه، ووقوفه بين يديه بتذلّل وتخشّع، وهي بهذا ميل فطري أصيل في الإنسان، يدعو للانتقال من مرحلة العاطفة الدينيّة الساذجة المكتفية بقشر الدين والتديّن الظاهري، إلى مرحلة الكون بين الخوف والرجاء. وقد ترتقي هذه العاطفة إلى درجة الشوق والأنس، وإلى الاندفاع الحميمي الناشئ من اشتعال وقود العشق في قلب العاشق؛ بحيث ينجذب إلى معشوقه بتلقائيّة لامتناهيّة، بغية نيل رضاه والأنس بمحضره.

ج - العبادة فعل وسلوك:

يقوم به الإنسان تجاه خالقه، فهو العابد هنا، والله هو المعبود. وهذا الفعل يتقوّم بأمرين:

١ - تعظيم الخالق وتمجيده:

وهو المعبّر عنه بالثناء على الذات المقدّسة بكل شؤونها وتجلّياتها. يقول الإمام الخميني(ره) في كتابه «سر الصلاة»: «العبادات هي ثناء على المقام المقدّس الربوبي، وعلى مراتب الثناء. وترجع كلّيًا إلى الثناء على الذات،

---

(١)- سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٢)- سورة الحجر، الآية ٩٩.

والثناء على الأسماء والصفات، أو الثناء على التجلّيات تنزيها أو تقديسا أو تمجيدا، وليست عبادة من العبادات بحسب السرّ والحقيقة خليّة عن مرتبة من ثناء المعبود»[1].

وهذا الثناء للجميل المطلق والكمال المطلق لا يليق بساحته المقدّسة ما لم يكن متناسبا مع مراتب ومقامات الربوبيّة التي تقصر طاقة العبد عن بلوغها وإدراكها. من هنا، كانت العبادات المرسومة في الشريعة والكيفيّات المذكورة لها صادرة عن الله تعالى، ولولا ذلك لكان لسان الخلق كليلا عن الثناء بما يليق بساحة قدسه - تعالى -.

يقول الإمام(ره): «ماذا أقول؟! مَن الذي يصف وبأيًّ وصف؟! وكلّ العالم من أعلى مراتب الوجود إلى أسفل سافلين هو لا شيء؛ إذ إنَّ كل ما هو موجودٌ هو - تعالى - لا غير؟! فماذا يمكن أن يُقال عن الوجود المطلق؟! ولولا أمر الله وإذنه - جلّ وعلا - فربما لم يتحدّث عنه بشيءٍ أيٌّ من الأولياء، وإن كان كل ما هو موجود حديثا عنه لا عن سواه!! والكلُّ عاجز عن التمرّد عن ذكره، فكل ذكر ذكرُهُ»[2].

ويقول (ره): «إنّ شكر النعم الإلهيّة الظاهرة والخفيّة هو أحد الواجبات الأساسيّة في العبادة والعبوديّة، وعلى الجميع أداء هذا الواجب بقدر المستطاع، رغم أنّ أيّاً من المخلوقات لا يبلغ حقّ الشكر لله»[3].

٢ - إظهار العبوديّة:

بمعنى سلوك فعل الطاعة والخضوع والانقياد لله - تعالى -. والعبوديّة هنا لا تستلزم الذل والفقدان بالمعنى السلبي؛ إذ في لجوء العبد إليه - تعالى - في كل شؤونه رفع للنقائص البشريّة؛ ففي «ذلّ العبوديّة» يكمن «عزّ الربوبيّة»، وما

---

(1)- سر الصلاة، مصدر سابق، ص٧١.

(2)- الإمام الخميني(ره)، وصايا عرفانية، (محضر الحق)، ط١، بيروت، ١٩٩٨م، مركز بقية الله الأعظم(ع)، ص٨٧.

(3)- الكلمات القصار «مواعظ وحكم من كلام الإمام الخميني(ره)»، مؤسسة نشر وتنظيم تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدولية، ط١، دار الوسيلة، بيروت، ١٩٩٥ م. ص١٤.

يفقده السالك من الإنّيّة والأنانيّة في العبوديّة يجده في ظلّ الحماية الربوبيّة، حتّى يصل إلى مقام يكون الحقّ - تعالى - سمعه وبصره ويده ورجله كما في الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين. وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: «**العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة، فما فقد في العبوديّة وجد في الربوبيّة، وما خفي من الربوبيّة أصيب في العبوديّة**»[1].

إنّ مَن تلمّس بوجدانه ذل العبوديّة والفقر الذاتي في وجوده لا يملك إلاّ أن يُيَمِّمَ وجهه شطر عز ربوبيّة الله - تعالى - : «العالم سواء كان أزليّا وأبديّا أم لا، وسواء كانت سلاسل الموجودات غير متناهية أم لا، فإنّها جميعا محتاجةٌ؛ لأنّ الوجود ليس ذاتيّا لها، ولو تمكّنتَ من مخاطبة سلاسل الموجودات المحتاجة بذاتها خطابا عقليّا، وسألتها: أيّتها الموجودات الفقيرة، مَن يستطيع تأمين احتياجاتكم؟ فإنّهاستردُّ جميعا بلسان الفطرة: إنّنا محتاجون إلى مَن ليس محتاجا مثلنا إلى الوجود، وكمال الوجود. والمخلوقات الفقيرة بذاتها لن تتبدّل إلى غنيّة بذاتها، فمثل هذا التبديل غير ممكن الوقوع، ولأنّها فقيرة بذاتها ومحتاجة، فلن يستطيع سوى الغني بذاته أن يرفع فقرها واحتياجها»[2].

روح العبادة في العبوديّة

يرى الإمام الخميني(ره) أنّ براق العروج إلى الحقائق الربوبيّة يكمن في طي مدارج «العبوديّة»، وهو بهذا يجعلنا نتلمّس روح العبادة في سلوك «العبوديّة» تحديدا، بحيث تغدو سائر التصورات من لوازم هذا المعنى وتوابعه؛ وإلاّ فما لم يدرك العبد المقام المقدّس للذات المقدّسة بالسير العبودي على ما يليق، فلا يتحقّق منه ثناء وشكر وتسبيح على ما ينبغي.

---

[1]- الإمام الخميني(ره)، الآداب المعنويّة للصلاة، ترجمة أحمد الفهري، ط٢، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٤م. ص٣٢ - ٣٣.

[2]- وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص١٢ - ١٣.

يقول الإمام(ره): «لا شكّ أنّ تسبيح الله - تعالى - وتقديسه والثناء عليه يستلزم العلم والمعرفة بمقامه المقدّس والصفات الجماليّة والجلاليّة، فذلك لا يتحقّق دون وجود معرفة وعلم»[1].

ويتم السلوك إلى *(عزّ الربوبيّة وذل العبوديّة)* من خلال اتّباع آداب ووظائف تمثّل خارطة التجلّيات والتجاذبات التي تنعكس في عالم القلب والباطن، ذلك العالم الذي ينبغي أن نوليه اهتمامنا الأكبر ونحن نتعقّب المدلول الجوهري للعبادة في نصوص الإمام(ره).

والباطن هنا عبارة عن سبر العلاقة في سياقها الوجودي، وتحديدا في نطاق السيرورة الداخليّة التي تتماهى فيها كينونة الإنسان مع رسوم العبوديّة، وهي آخذة في التشكّل والارتقاء المعنوي واستنفاذ الإمكانات المتاحة مرحليًا بحيث تجد سبيلها إلى التحقّق التدريجي بما يتناسب وكل مقام من مقامات العبادة، وذلك بفعل اندماج روحانيّة العبد بروح العبادة؛ والعمل على تقويتها والاستقواء بها في الآن نفسه. وبهذا وحده يتم تجاوز الصورة والشكل إلى المحتوى والمضمون.

إنّ روح العبادات وكمالها وتمامها إنّما هو بحضور القلب وإقباله، ولا تكون أي عبادة بدونه مقبولة، بل تكون ساقطة عن درجة الاعتبار. وإنّ كمال العبادات ونقصانها ونورانيّتها وظلمانيّتها يرتبط بروحها الغيبي ونفحتها الإلهيّة التي تنفح فيها بواسطة النفس الناطقة الإنسانيّة. وكلما كانت مرتبة الإخلاص وحضور القلب - اللذين هما الركنان الركينان للعبادة - أكمل، يكون الروح المنفوخ فيها أطهر، وكمال سعادتها أكثر، وصورتها الغيبيّة أنور وأكمل[2]. وكلما قوي ذلّ العبوديّة وعزّ الربوبيّة في باطن العبد زادت روحانيّته في العبادة وكانت روح العبادة أقوى، حتّى إذا تمكّن - بنصرة الحقّ وأوليائه الكُمّل(ع) - من الوصول إلى حقيقة العبوديّة وكنهها، ينبثق في وجدانه لمح

---

[1] الكلمات القصار، مصدر سابق، ص١٤.

[2] سر الصلاة، مصدر سابق، ص٦٩، ص٧٠.

من سرّ العبادة[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ روح العبوديّة تسري في كافّة العبادات التي يمارسها الإنسان، وقد يكون لبعض العبادات نصيب وحظّ أقوى من غيرها، لا سيّما إذا كانت العبادة مثل الصلاة: «وهذان المقامان - أعني مقام عزّ الربوبيّة الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبوديّة الذي هو رقيقته - مرموزان في جميع العبادات، وبالأخصّ في الصلاة التي لها مقام الجامعيّة»[2].

ويبقى أن نشير إلى أنّ سلوك العبادة - بنظر الإمام(ره) - في عالم الإنسان الباطني لا يجوز أن يلغي الظاهر، وإنّما يستوعبه ويحيط به. قال - تعالى -: **﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾**[3]. وهذا الابتغاء لدار الآخرة هو الأصل، والانشداد إليه إنّما يكون في عالم الدنيا، يلمّح إلى ذلك دلالة السياق: (ولا تنس)، فالظاهر يؤسّس لعالم الباطن، والباطن يبتني عليه. وتجاوز الشكل إلى المضمون لا يلغي الصورة من حسابات الروح، وإنّما تتحوّل الصورة إلى براق عروج من خلال سعيها لتأمين عامل الصحّة، ممهّدة بذلك لانطلاقة الروح من خلال سعيها لتأمين عامل القبول والرضا، وينصبّ الاهتمام الأساسي حول «شرائط القبول»، ويعتبر ما يصطلح عليه «بشرائط الصحّة» أمرا مفروغا عنه.

ولهذا، فإنّ هذا النوع من البحث لا يتعارض مع الاستظهارات الفقهيّة القائمة على الأخذ بالتعبّد المحض في إثبات ظواهر الطقوس العباديّة، كما لا يتعارض مع المستند الأصولي الذي يتمحور حول حقّ الطاعة في نظام الأعراف العقلائيّة التي تحدّد طبيعة العلاقة بين العبد والمولى.

حقيقة الحجاب

توجد في علاقة الإنسان بالله - تعالى - والتي ينبغي أن تتّخذ شكل

---

[1]- الآداب المعنويّة للصلاة، مصدر سابق، ص٣٢.

[2]- المصدر نفسه، ص٣٢.

[3]- سورة القصص، الآية ٧٧.

العبوديّة، عوائق وحجب من شأنها أن تؤدّي إلى إحتجاب الإنسان، وتحول بينه وبين التوجّه إلى عزّ الربوبيّة وذلّ العبوديّة. وقد تعرّض الإمام(ره) في كتاباته العرفانيّة والأخلاقيّة المختلفة إلى مشكلة الحجاب هذه، وأوضح أنّ الاحتجاب هو سبب معاناة الإنسانيّة، لذلك لا بدّ من اختراق الحجاب وإزالته. ويمكن مقاربة مسألة الحجاب والاحتجاب ضمن النقاط التالية:

١- إنّ الإنسان يسعى بفطرته حثيثا إلى احتواء مظاهر الغنى والكمال، وإنّ صاحب كل كمال وجمال حقيقيّين هو الله - تعالى - لا غير، وكلٌّ من يدرك هذه الحقيقة ويتذوّقها، لن يتعلّق قلبه بغير الله - تعالى - ولن يرجوَ غيره[١]، فالعالم بأسره يبحث عنه، ويحوم كالفراش باحثا عن جماله الجميل[٢]، وليس من حركة تقع إلاّ له، وليس من قدم تخطو إلاّ نحو ذلك الكمال المطلق[٣].

٢ - إنّ الإنسان الذي ينفر بفطرته من الفقر والنقص والعدم، يجد صفات النقص هذه على الدوام في نفسه وفي المخلوقات من حوله. وإنّ أيّ كمال أو جمال ينطوي عليه أيّ موجود ليس منه ذاتا، إنّما هو مظهر لكمال الله - تعالى- وجماله، بل إنّ حقيقة شهود السالك ونتيجة السلوك هو رؤية ذلّ العبوديّة في نفسه وفي جميع الموجودات[٤].

٣ - إنّ التوجّه إلى غير الله - تعالى - يحجب الإنسان بحجب ظلمانيّة وحجب نورانيّة؛ فالأمور الدنيويّة بأجمعها إذا ما تسبّبت في انشداد الإنسان إلى الدنيا وغفلته عن الله - تبارك وتعالى -، فإنّها تبعث على الحجب الظلمانيّة. وإنّ أهمّ الحجب وأشدّها ظلمة هو التعلّق بالنفس، فحقيقة الحجاب قائمة بنا: «نحن بذاتنا حجب، فأنانيّتنا وإنيّتنا هي التي تحجبنا»[٥] ، وإلاّ فإنّ الله - سبحانه - ظاهر بنفسه، بل إنّ: «كلّ ظهور هو ظهور له»[٦].

---

[١]- وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص١٢.

[٢]- المصدر نفسه، ص٣٣.

[٣]- المصدر نفسه، (نار الشوق)، ص٩٦.

[٤]- الآداب المعنويّة للصلاة، مصدر سابق، ص٢٥ - ٣٦.

[٥]- وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص١٤.

[٦]- المصدر نفسه، ص١٤.

٤ - إنّ النفس التي هي في ذاتها عين الفقر، قد يظهر فيها بعض الكمالات المستعارة، والتي ينبغي أن تقودنا إلى صاحب الكمال الحقيقي، وأما الميل إلى النفس والتعلّق بها - بتوهّم أنّ لديها كمال حقيقي - فهو سبب الإغتراب والمعاناة والإحتجاب: «نحن وأمثالنا - ممّن حجبتنا الحجب الظلمانيّة المتراكمة بعضها فوق بعض - إنّما نعاني ونتعذّب نتيجة هذا الاحتجاب»[1].

٥ - إنّ أوّل خطوة تمهّد لرفع الحجاب هي أن نعتقد أنّنا محجوبون، وأن نصحو تدريجيّا من خَدرَ الطبيعة الذي شمل كامل وجودنا من السرّ والعلن والباطن والظاهر[2].

إذاً، لا بد من خرق هذا الحجاب وفتح الباب كشرط للخروج من منزل النفس: **﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾**[3]. فكما أنّ الهجرة الصوريّة هي عبارة عن هجرة البدن إلى الكعبة أو إلى مشاهد الأولياء، كذلك الهجرة المعنويّة هي الخروج من بيت النفس ومنزل الدنيا إلى الله[4].

وعلى السالك الذي يسعى للورود إلى الضيافة الإلهيّة أن يبدّد كل الحجب من أمام طريقه، سواء النورانيّة منها والمظلمة، وهو المعبّر عنه بـ«كمال الانقطاع». وإلاّ فما لم يبدّد حجب الظلام، وما دامت كل توجّهاته إلى عالم الطبيعة، وما دام يجهل ما وراء الطبيعة والعالم الروحي، سوف لن يستفيد من القوى الروحيّة والمعنويّة الذاتيّة لإزالة ما ران على قلبه من ظلمة الذنوب. إنّ إنسانا هذا شأنه هو في الحقيقة في أسفل سافلين، الذي هو أدنى حجب الظلام وأشدّها: **﴿ثمّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾**[5]، في حين أنّ الله - سبحانه - خلق الإنسان في أسمى مرتبة ومقام: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾**[6].

---

[1]- المصدر نفسه، (نار الشوق)، ص٩٦.

[2]- المصدر نفسه، ص٩٦.

[3]- سورة النساء، الآية ١٠٠.

[4]- الآداب المعنويّة للصلاة، مصدر سابق، ص٣٢.

[5]- سورة التين، الآية ٥.

[6]- سورة التين، الآية ٤.

وآية الخروج والسفر والهجرة إلى الله - تعالى - هو زوال كل تعلّق بنفسانيّة السالك، وإلاّ فما دامت البقايا من الأنانيّة على امتداد نظر السالك وجدران مدينة النفس فهو في حكم الحاضر، لا المسافر ولا المهاجر[١].

العبادة والإنسان

تتعدّد مقامات الإنسان بتعدّد مدارج الكمال المعنوي؛ ذلك أنّ الإنسان الكامل هو «تمام دائرة الوجود»[٢]، وهو «واقع في ظلّ جميع الأسماء ذوات الظّل»[٣] فيكون لهذه المقامات مراتب لا تحصى؛ إذ الإيمان ليس بسيطا بحيث يدور أمره بين أن يوجد بتمامه أو يعدم بتمامه، وإنّما له مراتب ودرجات تتفاوت بالشدّة والضعف.

وفي كتاب «سرّ الصلاة» و«الآداب المعنويّة للصلاة» يتطرّق الإمام(ره) للحديث عن المقامات المعنويّة للإنسان، ويذكر أنّ جميع هذه المقامات موجودة للصلاة أيضا، فتكون المقامات الإنسانيّة على حسب سفر السالك المعنوي، ويكون لكلّ سالك من صلاته حظّ ونصيب على حسب مقامه[٤].

إنّ لكلّ عبادة أثرا يحصل في القلب، وقد عبّر عن ذلك في الرواية بزيادة النقطة البيضاء أو توسّعها[٥]. وبهذا المعيار، تختلف صلاة المصلّي في المرتبة التي هو فيها عن صلاته في المرتبة الأخرى اختلافا كبيرا، كما أنّ مقامه يختلف مع سائر المقامات اختلافا كثيرا؛ وحيث إنّ بين ظاهر الإنسان

---

[١]- الآداب المعنويّة للصلاة، مصدر سابق، ص٣٢.

[٢]- سر الصلاة، مصدر سابق، ص٥٢.

[٣]-المصدر نفسه، ص٥١.

[٤]- سر الصلاة، مصدر سابق، ص٥٥.

[٥]-عن علي(ع): «الإيمان يبدأ نقطة بيضاء في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت بياضا حتّى يبيض القلب كله، والنفاق يبدأ نقطة سوداء في القلب، كلما ازداد النفاق ازدادت سوادا حتّى يسود القلب كله، والذي نفسي بيده لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسودا». وفي رواية: «إن الرجل ليذنب الذنب فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثمّ يذنب الذنب فينكت حتّى يصير قلبه لون الشاه الربداء». انظر: ابن أبي شيبة الكوفي (ت ٢٣٥)، المصنف، تحقيق وتعليق سعيد اللحام، ج٧، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٩م. ص٢١١.

وباطنه علاقة طبيعيّة، فتسري آثار كلّ منهما إلى الآخر وتؤثّر فيه.

فما دام الإنسان في صورة الإنسان فصلاته أيضا صوريّة، وصورة الصلاة وفائدتها إنّما هي بالنسبة إلى صحّتها الفقهيّة على الرغم من أنّها فاقدة لشرائط القبول وغير مرضيّة من الله - تعالى -. فإذا تجاوز المصلّي من المرتبة الظاهريّة إلى المرتبة الباطنيّة، ومن الصورة إلى المعنى، فتكون صلاته صلاة حقيقيّة بمقدار ما هو متحقّق فيها من معنى الصلاة وباطنها وسرّها[1].

تدرّج الإنسان المعنوي

إنّ الغاية من السفر في المقامات، وحضور القلب في العبادات، هو إيداع القلب عند الله بحيث لا يرى السالك مؤثّرا غيره - تعالى -. وحضور القلب في العبادة له مراتب متفاوتة شدّة وضعفا:

تارة يكون حضور القلب في العبادة حضورا إجماليّا: بأن يُفهِم الإنسان قلبَه أنّ باب العبادات باب ثناء المعبود، وأنّه يثني على الله - تعالى - بما أثنى الحقّ به على نفسه، ويوجّه قلبه من أوّل العبادة إلى آخرها إلى هذا المعنى إجمالا، وإن كان هو لا يعلم بكيفيّة ثنائه، وبماذا يثني، ولماذا يمدح، مثله كمثل شاعر يمدح أحدا بقصيدته ويعلّم طفلا أنّ هذه القصيدة هي لمدح فلان، ولكنّ الطفل لا يدري كيف مدح الشاعر الممدوح، وبأيّ شيء مدحه، ولكنّه حين قراءته القصيدة يعلم إجمالا أنّه يمدحه وإن لم يعلمه تفصيلا.

إنّ أصحاب الحضور الإجمالي في العبادة، لا يعلمون من الصلاة وغيرها من العبادات سوى الصورة والقشر، ولكنّهم يدركون المفاهيم العرفيّة للأذكار والأدعية والقراءة. وحضور القلب لهم أن يحضروا في وقت الذكر أو القراءة مفاهيمها في القلب، فتحضر قلوبهم عند المناجاة مع الحقّ.

وتارة يكون حضور القلب في العبادة حضورا تفصيليّا: بأن يكون القلب

[1]- سر الصلاة، مصدر سابق، ص٥٥.

حاضرا في جميع العبادة، وعالما بماذا يصف الحقّ، وكيف يناجيه. والحضور التفصيلي له أنحاء متفاوتة على حسب تفاوت القلوب ومعارف العابدين، وهي بحسب بيان الإمام لها كما يلي:

١ - **العلم:** والمقصود بالعلم هنا هو إثبات ذلّة العبوديّة وعزّة الربوبيّة بالبرهان العلمي والفلسفي. وأصحاب هذا المقام هم الذين يفهمون حقائق العبادات والأذكار والقراءة بالقدم العقلي الفكري، فيعلمون مثلا بالبرهان العقلي كيفيّة رجوع جميع المحامد إلى الحقّ، ويعلمون حقيقة الصراط المستقيم، وحقيقة معاني سورة التوحيد التي هي أصول المعارف، كل ذلك بقدم الفكر والعقل. وحضور القلب في العبادة هو أن تحضر قلوبهم تفصيلا عند ذكر هذه الحقائق والمحامد، ويعلمون ما يقولون، وكيف يثنون على الحقّ ويحمدونه. وينبغي على السالك أن يدرك أنّه لا يصحّ الاكتفاء بالسلوك العلمي هذا؛ ذلك أنّ سالك سبيل العبوديّة في هذا المنزل يقع في حجاب العلم، ولا بدّ من أن لا يبقى في هذا الحجاب وأن يخرقه؛ وإلاّ فإنّه إذا اقتنع بهذا المقام وسجن قلبه في هذا القيد يقع حينئذ في مغبّة الاستدراج، فيشتغل بالتفريعات العلميّة والبراهين الكثيرة، ويغفل عن النتيجة المطلوبة، وهي الوصول إلى الله.

٢ - **الإيمان:** وهو أنّ كلّ ما أدركه العقل بقوّة البرهان والسلوك العلمي يكتبه بقلم العقل على صحيفة القلب، كي يوصل حقيقة ذلّ العبوديّة وعزّ الربوبيّة إلى القلب، ويفرغ من القيود والحجب العلميّة، ويحصل له الإيمان القلبي بالحقائق.

في إحدى وصاياه لولده السيّد أحمد يقول الإمام(ره): «إنّ الإيمان بوحدة الإله ووحدة المعبود ووحدة المؤثّر لم يصل - كما ينبغي - إلى قلبك. إبذل الجهد لتصل كلمة التوحيد - التي هي أعظم كلمة وأسمى جملة - من عقلك إلى قلبك. فإنّ حظّ العقل هو ذلك الاعتقاد البرهاني الجازم. وإذا لم يصل حاصل هذا البرهان بالمجاهدة والتلقين إلى القلب، فإنّ فائدته وأثره لا يكادان يذكران. كثيرا ما يكون بعض هؤلاء، أصحاب البرهان العقلي

والاستدلال الفلسفي أكثر من غيرهم في شَرَك إبليس والنفس الخبيثة: (أرجُل الاستدلاليين خشبية)[1]. ولا تتبدّل هذه الخطوة البرهانيّة والعقليّة بخطوة روحانيّة وإيمانيّة إلاّ عندما تصل من أفق العقل إلى مقام القلب، ويقبل القلب ما أثبته الإستدلال العقلي»[2].

إذاً، يمتاز أهل العلم عن أهل الإيمان، وليس كلّ مَن هو مِن أهل العلم فهو أهل للإيمان، فيلزم للسالك أن يدخل نفسه في سلك المؤمنين بعد سلوكه العلمي، ويوصل إلى قلبه عظمة الحقّ كي يخشع قلبه.

٣ - الاطمئنان: وهو في الحقيقة المرتبة الكاملة من الإيمان. قال - تعالى - مخاطبا خليله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[3]. وهو عبارة عن أن يأتي السالك بالعبادة مع سكون القلب واطمئنان الخاطر.

وأصحاب الطمأنينة يدركون الحقائق بقدم الفكر والعقل، ويكتبونها بقلم العقل على لوحة القلب، وقد عرفت قلوبهم تلك الحقائق وآمنت بها. فكم من أمر يدركه الإنسان بالعقل، ويقيم البرهان على ما أدركه، ولكنه لم يصل إلى مرتبة الإيمان القلبي، وإلى المرتبة الكاملة منه، وهي الاطمئنان، ولم يترافق قلبه مع عقله في ذلك.

٤ - المشاهدة: وهي نور إلهي وتجلّ رحماني يظهر في سرّ السالك تبعا للتجلّيات الأسمائيّة والصفاتيّة، وينوّر جميع قلبه بنور شهوديّ، ولهذا المقام درجات كثيرة.

وأصحاب المشاهدة هم الذين أوصلوا هذه الحقائق إلى مرتبة القلب، ووصلوا إلى مقام كمال الاطمئنان، وبالإضافة إلى ذلك وصلوا إلى مرتبة الكشف والشهود بالمجاهدات والرياضات، فيعاينون الحقائق بالعين الملكوتية

---

[1]- ترجمة صدر بيت لمثنوي وترجمة عجزه: والأرجل الخشبية لا يقر لها قرار.

[2]- وصايا عرفانية، (بلسم الروح)، مصدر سابق، ص٥٩.

[3]- سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

والبصيرة الإلهيّة مشاهدة حضوريّة وبالحضور العيني بما يناسب قلوبهم[١].

غاية العبادة

إنّ الغاية من العبادة والسلوك هي أن يجد العابد حقيقة أنّ جميع دار التحقّق وتمام دائرة الوجود *(باستثناء الذات المقدّسة)* إنّما هو صرف الربط والتعلّق ومحض الفقر والفاقة، أما العزّة والملك والسلطان فمختصّة بذات الله المقدّسة، وليس لأحد من حظوظ العزّة والكبرياء نصيب، وذلّ العبوديّة والفقر ثابت في ناصيتهم وفي حاقّ حقيقتهم[٢].

على أنّ بلوغ هذه الحقيقة لا يعني الاستغناء عن العبادة بأيّ حال، فإنّ من أدرك حقيقة ذلّ العبوديّة وعزّ الربوبيّة لا يمكن أن تزول قدمه عن العبادة طرفة عين. إلاّ أنّ عبادة الواصل (الذي أنهى سيره وبلغ المطلوب) تتميّز عن عبادة السالك (الذي ما زال في السير السلوك)؛ فإنّ صلاة الواصل هي عبارة عن خارطة التجلّيات وصورة مشاهدات جمال المحبوب، وليس له في عبادته تلك أي توجّه استقلالي أو إعمال رويّة، وإنّما يشاهد في سرّ قلبه سريان حكم الغيب إلى الشهادة وظهور آثار الباطن في الظاهر، فينتج عن ذلك حركات شوقيّة، هذه الحركات يكون لها آثار متناسبة مع كيفيّة التجلّيات، ومطابقة لإحدى المناسك والعبادات بحيث لا يتغيّر جزء أو شرط من آدابها الصوريّة ولا تكون مخالفة للمقرّرات الشرعيّة. ومثل هذه الجذبة الروحيّة مثل حال العاشق المجذوب وحركاته العشقيّة، فإنّ حركاته وأعماله ليست عن رويّة وتفكر في مقدّماتها، فليس للعاشق في كيفيّة مغازلته أن يمهّد مقدّمات ويصل منها إلى النتيجة، بل حقيقة العشق نار تطّلع على فؤاد العاشق وتسري جذوتها إلى سرّه وعلانيّته وباطنه وظاهره. فكذلك حال عاشق الجمال الصمدي: فإنّ

---

[١]- حول حضور القلب في العبادة ومراتب مقامات أهل السلوك، راجع بتفصيل أكبر مقدمة كتاب سر الصلاة، مصدر سابق، الفصل الرابع برمته. وأيضا: انظر الآداب المعنويّة للصلاة، مصدر سابق، المقالة الأولى، الفصل الثاني برمته.

[٢]- الآداب المعنويّة للصلاة، مصدر سابق، ص٣٥.

الجذبات الباطنيّة للمحبوب التي تظهر للعاشق في مملكة شهادته تشكّل هذه المخطَّطة الصلاتيّة[1].

بهذا البيان النظري الذي يكشف شذرات من معالم البناء الروحي للعبادة كما وردت في كتب الإمام(ره)، نعطف الكلام إلى الجانب العملي، لنرى كيف تجسّدت هذه المعالم الروحيّة إلى مواقف وسلوك في السيرة الروحيّة للإمام(ره).

عبادة الروح

اسمه «روح الله»، وتقدّم في إشارة من شيخه العارف: «إنّ روح الله روح الله حقّا»[2]. وقد يصحّ القول إنّ منشأ التسمية في الواقع ارتجالي جزافي، وأنّ الاسم لا ينطبق بالضرورة على الواقع، ويستثنى من ذلك أسماء الأنبياء والأئمّة التي جاءت بإرشاد من الوحي. إلاّ أنّه يبقى للأولياء من عباد الله الصالحين حظّ ونصيب من ذلك بما جاهدوا به وأنجزوه في أنفسهم من مقامات؛ وميّزة الاسم هنا تكمن في التجسيد الفعلي للمضمون من خلال التحقّق بلوازم التسمية.

ومهما يكن، فليس من قصدنا أن نتطرّق هنا للبحث عن الاسم بما هو لفظ له دلالة خاصّة، قد تنطبق على مسمّاه فيما لو أحرز تلك الدلالة في نفسه. كما ليس القصد أن نتطرّق لمفهوم «الاسم» كمصطلح خاص يتداوله المشتغلون في حقل العرفان النظري، وإنّما ينصبّ الحديث هنا حول المضمون الإيماني للروح العابدة العاشقة التي جسدّها الإمام الخميني والتي - بشيء من الاستعارة - يمكن أن نطلق عليها تسمية الروح الشابّة؛ نظرا لما تتمتّع به هذه الروح من حضور قوي وفعاليّة تامّة.

---

[1]- سر الصلاة، مصدر سابق، ص٦١.

[2]- العارف الكامل، مصدر سابق، ص٤١ نقلا عن الشيخ بني فضل.

الروح الشابّة

تعرّض الفلاسفة وعلماء الكلام للحديث عن «الروح» بوصفها ذلك الكيان الوجودي الذي يمرّ في مراحل متعدّدة عبر عوالم مختلفة، دون أن تؤثّر فيها تلك الانتقالات الجسديّة من حالة الجنينيّة إلى حالة الشباب فالشيخوخة؛ لكونها من عالم مختلف عن عالم الجسد. كما تحدّث علماء النفس عن «الروحيّة المرحة» بوصفها إحدى الوضعيّات النفسانيّة التي تلازم الإنسان حتّى في مرحلة متأخّرة من عمره بحيث نجد أنّ فيه دعابة ومزاحا، فيقال عنه - بحسب العرف العام - أنّ روحه ما زالت شابّة. وما يهمّنا التطرّق إليه هنا ليس هو المعنى الحرفي أو العرفي للروح الشابّة، وإنّما المعنى الخلقي والمعنوي الذي يدخل في نطاق عمل علماء الأخلاق والتربية المعنويّة، وبهذا المعنى يقصد بـ «الروح الشابّة» الروح في نطاق حضورها وإشراقها في إطار هذا العالم، بحيث إنّه مع تقهقر جسد الإنسان إلى مرحلة «أرذل العمر»[1] نجد أنّ روحه تبقى مستضيئة بنور ربّها وتظهر بكامل حضورها ووعيها، بخلاف مَن لا يملك أيّ قسط من غذاء العلم والإيمان والحكمة، حيث يغلب على روحه الخمول والتشتّت وفقدان الذاكرة وانعدام التركيز والانزواء ألخ.

وللاطّلاع على بعض معالم الروح العابدة كما تألّقت في أفق الإمام الخميني(ره)، وانكشفت للعيان في بعض الأوقات بوضوح، تعتبر ملاحظة الشيخ رحيميان[2] في هذا الصدد أساسيّة، إذ يقول:«إنّ المشيئة الإلهيّة قد

---

[1] اصطلاح قرآني ورد في الآية ٧٠ من سورة النحل. قال الطبرسي(ره): أرذل العمر أي أدون العمر وأوضعه، أي يبقيه حتّى يصير إلى حال الهرم والخوف فيظهر النقصان في جوارحه وحواسه وعقله. وروي عن علي(ع) أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة. وروي مثل ذلك عن النبي(ص). وعن قتادة تسعون سنة. وفي تفسير علي بن إبراهيم عن أبي عبد الله، عن أبيه(ع) قال: إذا بلغ العبد مائة سنة فهي أرذل العمر. وفي الخصال روي أنه إذا بلغ المائة فذلك أرذل العمر. وروي: أن أرذل العمر أن يكون عقله عقل ابن سبع سنين. انظر: العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج٦، تحقيق يحيى العابدي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٢م. ص١١٨ - ١٢٠.

[2] لازم الشيخ رحيميان مكتب الإمام الخميني ما يقارب ٢٧ عاما.

اقتضت أن تكشف للعيان بصورة قاطعة، ولو لبضعة أيّام وليال، أنّ قانون ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾[1] الذي ينطبق على الجميع، من الممكن أن يستثني بعض الأفراد المتميّزين، الذين يوفّر لهم الخلق القويم الذي يتمتّعون به والذوبان الذي يعيشونه في ذات الحقّ من الناحية الباطنيّة مناعة تستعصي على الأمراض الجسديّة، كما تستعصي على الموت والفناء. وإذا كان الإنسان هو مصداق: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾[2] بشكل عام، فإنّ الروح الإلهيّة التي نفخها الخالق - عزّ وجلّ - في خليفته على الأرض من شأنها أن تحفظه من الانحطاط في (أرذل العمر)، ومن فقدان العلم والوعي اللذين يتمتّع بهما، فيقضي عمره حتّى اللحظات الأخيرة وهو في قِمّة تجلّي الشخصيّة الإنسانيّة والوسعة الروحيّة، وفي أوج التفاعل مع المشاعر السامية، ومع كافّة المواهب والمعارف الإلهيّة التي اكتسبها، وفي ذروة توجّهه إلى مبدأ الوجود والمعاد والمعارف الحقّة. لذا، فهو ينطلق من معرفته المتكاملة وقدرته الواعية، ليحرق جدار الموت والزوال، ويحلّق في الفضاء الرحب اللامتناهي، وفي أجواء العالم الأبدي والملكوت الأعلى، ليلاقي وجه ربّه، مبدأ الكمال والوجود»[3].

وهذا النص يلمّح إلى حقيقة أساسيّة يمكن التعبير عنها بـ «قانون الروح»، ذلك القانون الذي يسمح باختراق جدار الموت والزوال. ووفق هذا القانون تُسقِط الروح من قاموسها مفردات من قبيل النكوص، والخمود، والركود، والضعف، والخمول، والتكاسل، والتعب، والمرض. وتعلن بذلك عن انتصارها على عالم الطبيعة وخدرها، وهذا الإعلان الروحي هو صنيعة القيام لله، ونتاج جذبات العشق في محراب العبادة، تلك الجذبات التي ينتج عنها نشاط روحي عفوي وتلقائي، نشاط ليس له أن يتمهّد بمقدّمات موصلة إلى النتائج؛ ذلك أنّ

---

[1]- سورة يس، الآية ٦٨.

[2]- سورة النحل، الآية ٧٠.

[3]- رحيميان، أنوار العروج، ترجمة علي شرف الدين، إعداد سفارة الجمهورية الاسلامية الايرانية - بيروت، ص٢١.

العشق كالنّار تطّلع على فؤاد العاشق فتسري جذوتها إلى سرّه وعلانيّته وباطنه وظاهره، وبهذا تتميّز روح الواصل الذي أنهى سيره وسلوكه عن روح السالك الذي ما زال في طور طي الطريق.

ومن الحقائق المشهودة في هذا المجال أنّ الروح التي عشقت العبادة فعانقتها ينعكس أثرها بصورة نشاط مكثّف تجاه الوقائع، وتفاعل متزايد مع الأحداث، مأخوذة في ذلك بحماس رسالي يدفعها نحو أداء التكليف تحصيلا لمرضاة الله - تعالى -، دون أن يكون لحسابات الجسد الساقط في حبائل المادّة أيّ تأثير سلبي على نشاطها وتكليفها، ومن الجانب الظاهري والكمّي، فليس هناك من يستطيع ادّعاء أنّه رأى الإمام(ره) بلا عمل أو انشغال في يوم من الأيّام، وبشهادة المقرّبين منه، فإنّه في الأيّام الأخيرة من عمره الشريف، وبالرغم من الضعف والمرض والكهولة التي أرخت ظلالها عليه، بقي الشخص الأكثر عملا وفعاليّة وانهماكا من بين الجميع.

ثمّة تفصيل يذكره الشيخ رحيميان، يلقي الضوء على جانب من هذه الفعاليّة، فيقول: «استدعاني الإمام حدود الساعة السابعة مساء لإنجاز عمل معيّن، وعندما تشرّفت بخدمته كان قد انقضى على وقت آذان المغرب حدود الساعة والإمام ما زال مشغولا بأداء التعقيبات الخاصّة بصلاتي المغرب والعشاء، وفي الأثناء يمارس الأعمال التالية:

١ - يحمل المسبحة في يديه ويسبّح الله.

٢ وهو مستلق على ظهره يحرّك رجليه من الأسفل إلى الأعلى وبالعكس، بناء على نصائح وإرشادات طبيبه الخاص.

٣ - يشاهد التلفزيون من دون صوت.

٤ - يستمع إلى الراديو.

٥ - إضافة إلى ذلك كان حفيده الصغير «علي» يجلس إلى جانبه، ويسعى جاهدا ليقلّد حركات الإمام، ولم تمنع جميع الأمور المذكورة الإمام من إبراز حنانه وعطفه الأبوي على هذا الطفل الصغير.

وهكذا نرى أنّ الإمام كان يقوم بخمس وظائف مختلفة في آن واحد، وبشكل دائم»[1].

بقيت الروح الخمينيّة هذه حتّى آخر لحظة من لحظات احتكاكها بالجسد حافلة بالنشاط والحضور والأداء المميّز، فلم تتأثّر سلبا بضمور قوى البدن بل اشتدّت تألّقا وإقبالا وإشراقا في محضر الله - تعالى -، يقول الشيخ رحيميان: «كلّما كان الإمام يقترب أكثر من لحظات الفراق والوحشة، كلّما كان اقترابه من الله يأخذ طابعا أوضح، وآثار وبيّنات حكمته ومعرفته الإلهيّة تسطع أكثر، وصفاء وجهه النيّر يشرق أكثر. وفي الوقت الذي كانت حالته الصحيّة تتدهور يوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، وكان جسده المنهك يضعف بصورة أوضح، الأمر الذي يستوجب حسب الحالة المعتادة المزيد من التأوّه والتألّم والجزع، برزت شخصيّة الإمام المصقولة وحقيقة إنسانيّته المتكاملة التي غلّبت روحه السامية على الجسد وعالم الطبيعة؛ حيث بات الجسم مجرّد وعاء يسع تلك الروح. برزت وقدّمت نموذجا مختلفا من التجلّي والعظمة. وبدل أن تسمع منه أصوات الآلام المحرقة من الوجع والتلوّي، لم يصدر من فمه سوى ذكر الله - عزّ وجلّ - وبعض الأدعية التي يبثّ فيها شوقه إلى بارئه. فهو لم يتعوّد على إظهار المسكنة إلاّ أمام الله. وبدل أن تظهر أمارات الغضب والضّيق على وجهه من أثر الحالة التي هو فيها، كان يشعّ من قسماته الملألئة نور الإيمان والهدوء والاطمئنان»[2].

الروح العابدة

من الصعوبة بمكان، أن نتحدّث عن عبادة الإمام وتجلّياتها دون أن نكشف النقاب عن الأبعاد المعنويّة التي احتوتها روح الإمام(ره) في مسيرتها العباديّة الحافلة.

---

[1]- رحيميان، في ظلال الشمس، ترجمة حسن عز الدين، ط٢، بيروت، دار الوسيلة، ١٩٩٥، ص٩٠.

[2]- أنوار العروج، مصدر سابق، ص٢٢.

وقد تقدّمت الإشارة حول التأثّر والتأثير المتبادل ما بين المحتوى العبادي من جهة والإنسان المتعبّد من جهة أخرى. واتّضح هناك أنّ هذا التأثير لا يقف عند حدود الظاهر، بل يتجاوزه إلى العمق ويساهم في بلورة الشخصيّة وتشكيلها على مستوى الكيان والمصير تأثيرا حاسما صميميًا.

وقد تصدّت بيانات الإمام العرفانيّة لشرح وتفصيل معالم هذه العلاقة في كافّة أبعادها السلوكيّة والنظريّة، وأشارت إلى أنّه ما دام الإنسان في صورة إنسان فصلاته أيضا صوريّة، وإذا تجاوز المصلّي من المرتبة الظاهريّة إلى المرتبة الباطنيّة، فتكون صلاته صلاة حقيقيّة بمقدار ما هو متحقّق فيها من معنى الصلاة وباطنها وسرّها. وإنّ كمال كل موجود ونقصه بكمال النفس الناطقة ونقصها التي هي النفحة الإلهيّة للإنسان، وكذلك العبادات يكون كمالها ونقصانها مرتبط بروحها الغيبي ونفحتها الإلهيّة التي تنفح فيها بواسطة النفس الناطقة الإنسانيّة. وكلما كانت مرتبة الإخلاص وحضور القلب اللذين هما الركنان الركينان للعبادة أكمل يكون الروح المنفوخ فيها أطهر، وكمال سعادتها أكثر، وصورتها الغيبيّة أنور وأكمل. والسرّ في كلّ ذلك هو أنّ روح العبادات وكمالها وتمامها بحضور القلب وإقبال الروح.

وحينما يتاح لأمثالنا إدراك معاني اكتمال الروح واستنارتها في صورتها الغيبيّة، سوف لن نُفاجأ حينئذ بالنصوص التي تتحدّث عن النظام الدقيق الذي اتّبعه الإمام(ره) في عباداته فضلا عن معاملاته، وعن تقيّده الصارم بالعبادة بالشكل الذي يبعث على التساؤل بحيرة: «كيف يمكن لشخص يريد إسقاط نظام معيّن وإقامة نظام العدل الإسلامي الذي يبني العالم ويجلب السعادة لجميع البشريّة.. ومع كل هذه المشاكل السياسيّة، كيف يمكن له أن يصرف جزءا كبيرا من وقته للعبادة وتلاوة القرآن وقراءة الأدعية»[1].

ومع ذلك، لم تكن عبادته عاديّة، فقد بلغ الإمام في عباداته حد الذوبان في

---

[1]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٧٢.

المعشوق، وذهل العاشق عن كل محبوب سواه ولم يعد يأنس بما عداه!! فأفرد محبوبه بالعبادة دون أن يصرفه عن ذلك صارف، بل غدت كل الأشياء بنظر العاشق من توابع المحبوب ولوازمه، فلا يرى شيئا إلاّ ويرى معشوقه معه وفيه وبعده: «فإنّ أيّ كمال أو جمال ينطوي عليه أي موجود ليس منه ذاتا، إنّما هو مظهر لكمال الله - تعالى - وجماله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[1] حقيقةٌ تصدق على كلّ شيء وكلّ فعل وكلّ قول، وإنّ كلّ من يدرك هذه الحقيقة ويتذوّقها، لن يتعلّق قلبه بغير الله - تعالى -، ولن يرجوَ غيره»[2].

ويمكن أن نقتفي أثر تلك الروح العاشقة في أحاديث المقرّبين من الإمام(ره) والتي صرّحوا فيها عن حيرتهم وذهولهم من المستوى الذي بلغه الإمام في عبادته وعلاقته مع ربّه، يقول السيّد أحمد الخميني: «ليست عبادة الإمام وارتباطه بالله من الأمور التي أستطيع وصفها، وقد اتّصلت - قدر استطاعتي - بأصدقاء أبي، وسألت والدتي حول هذا الموضوع، فأجمعوا على أنّ الإمام كانت له علاقة خاصّة بالله وأنّه فانٍ في الله، ويتحدّث عن معشوقه بشكل يقف له شعر المرء»[3].

يقول السيّد الخامنئي(حفظه الله) في هذا الصدد:«إنّنا لم نتشرّف برؤية الأئمة المعصومين عليهم السلام ، ولكنّ المرء يستطيع أن يرى مثيل صفاتهم- كالعبادة، والاقبال على الله مثلا - متجسّدة في الوجود المقدّس لإمامنا الراحل العظيم»[4].

١ - أهميّة الوقت والتنظيم

يتحدّث العلماء عن أهميّة «تنظيم الوقت» والذي يعني ببساطة تنظيم

---

[1]- سورة الأنفال، الآية ١٧.

[2]-وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص١٢.

[3]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٨.

[4]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مجموعة من الكتاب، ترجمة لجنة الغدير، ط١، بيروت ٢٠٠٤م. ص١٨.

الحياة وما يرافقها من أحداث وأعمال ونشاطات. ويعتبر الوقت عاملا أساسيّا في نجاح أو فشل النشاط الإنساني، وقد أقسم الله - عزّ وجلّ - في كتابه الكريم بالزمن للتدليل على أهميّته، وأنّ هذه الحياة فرصة لابتلاء الناس أيّهم أحسن عملا، وهي فرصة قصيرة جدا قياسا لها بالحياة السرمديّة في الدار الآخرة. كما ضرب الرسول ﷺ من خلال سيرته العمليّة مثلا رائعا في حسن استغلال الوقت وتدبيره، وكان حريصا في توجيه أمّته إلى أهميّة الوقت لترسيخ ذلك المفهوم في وجدان أتباعه. إنّ الوقت نعمة من الله تمرّ سريعا، وقد قيل: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

وقد قدّم الإمام(ره) مثالا بارزا ونموذجا يحتذى في كيفيّة تنظيم الوقت والاستفادة القصوى منه في القيام لله - تعالى -، كما بذل عناية خاصّة في الالتزام بأوقات العبادة وتوابعها، فلم يكن يتساهل في التقيّد بالعبادات والمستحبّات تحت ضغط الأعباء والاهتمامات التي واجهها (ره)، سواء في أثناء جهاده ضد جبروت الشاه ونفيه إثر ذلك إلى أقاصي البلاد، أو في أثناء إنهماكه بإقامة الدولة الإسلاميّة وإدارتها، أو في أثناء مواجهته للاستكبار في أكثر مظاهره شراسة وقمعا وطغيانا، أو في أثناء تصدّيه لشؤون المرجعيّة الدينيّة وما يوجبه ذلك من متابعات حثيثة.

فلا عجب أن يقف المرء بحيرة وذهول أمام هذا النموذج الفريد الذي جسّده الإمام من خلال تقيّده بنظام صارم في أداء العبادات تقيّدا لم يتزحزح عنه في سيرته العمليّة قيد أنملة، وذلك رغم طغيان الواقع السياسي والاجتماعي والعسكري من حوله، وما يفرضه ذلك عادة من انشغال البال وانصراف الهمّة. وقد ورد عن الأئمّة عليهم السلام أنّه ينبغي للمؤمن أن يقسّم أوقاته إلى أقسام؛ فقسم يناجي به ربّه وقسم لتأمين المعيشة. فكان للإمام(ره) برنامج منظّم لتفاصيل حياته وعباداته؛ إذ هناك وقت لتلاوة القرآن، ووقت لقراءة الدعاء.. وهذا النظام مرتّب بشكل لا يتطرّق إليه الخلل مطلقا.

وقد تعرّضت السيّدة زهراء ابنة الإمام(ره) للحديث عن البرنامج اليومي

للإمام(ره)، كاشفة بذلك عن جولة يوميّة كاملة من حياته. نقتطف منها التالي مع بعض التصرّف:

الساعة الثانيّة بعد منتصف الليل، موعد الإمام(ره) مع الحبيب في جلوات الليل، يصحبه التهجّد والعبادة وأداء صلاة الليل متّصلا حتّى طلوع الفجر، لا يتخلّله سوى استراحة قصيرة بعد صلاة الليل، يقرأ فيها الاستفتاءات التي يجب أن يراجعها بنفسه. لم يترك الإمام الخميني صلاة الليل اختيارا. ومع ظهور خيط الفجر يصلّي الصبح ويدعو، ويخلد بعدها إلى إستراحة حتّى الساعة السادسة، يواظب بعدها على تلاوة القرآن.

الساعة السابعة صباحا، أوان الانتهاء من تناول الإفطار والدخول إلى غرفة الاستقبال حيث تبدأ اللقاءات التي تستمر لمدّة ساعتين يتواصل خلالها بشكل دائم مع الناس.

الساعة التاسعة صباحا، موعد الإمام(ره) مع رياضة المشي التي تستمر نصف ساعة يشتغل خلالها بذكر الله، ثمّ يدخل عند التاسعة والنصف إلى غرفته الخاصّة لقراءة التقارير التي ترسل إليه من أنحاء البلاد. وبعدها تأتي استراحة القيلولة ما بين العاشرة وعشر دقائق إلى الساعة الحادية عشرة والنصف حيث كان يضطجع ويتناول قسطا من الراحة.

الساعة الحادية عشر والنصف يتأهّب الإمام للصلاة، فيتوضّأ، ثمّ يتلو القرآن، ثمّ يؤدّي صلاتي الظهر والعصر ونوافلهما.

الساعة الواحدة إلاّ خمس دقائق، ينتهي من الصلاة، فيجلس للتحدّث مع أفراد عائلته لمدّة عشر دقائق، يتناول بعدها طعام الغداء. وفي الساعة الواحدة وخمس دقائق، يتحدّث مع العائلة لمدّة عشر دقائق.

ثم يتابع قراءة تقارير الأخبار فيستمع إلى أخبار الساعة الثانية، ويستريح حتّى الساعة الرابعة، حيث يمارس رياضة المشي لمدّة نصف ساعة، يشتغل خلالها بذكر الله.

قبل غروب الشمس يجدّد الوضوء ويبدأ بتلاوة القرآن إلى أن تغرب

الشمس، فيتهيّأ لصلاتي المغرب والعشاء ونوافلهما. ثمّ يأوي إلى غرفته الخاصّة للمطالعة والقراءة حيث يهتم بقراءة الكتب المطبوعة حديثا، وقد كانت قراءاته متنوعة.

وهو إلى ذلك لا يهمل مراجعة الصحف والمجلاّت، ومتابعة برامج التلفاز، واستماع الأخبار بدقّة، وكذلك تقارير الأخبار ومتابعة المقابلات والتصريحات.

ثم يمارس بعض التمارين الرياضيّة لمدّة ربع ساعة، يتناول بعدها طعام العشاء عند الساعة التاسعة، ثمّ يقوم ببعض الأعمال الخاصّة به تستمر إلى العاشرة ليلا، وقد تزيد عن ذلك الوقت بعشر دقائق، يذهب بعدها إلى غرفته للنوم حتّى الثانية بعد منتصف الليل؛ لينهض من جديد لصلاة الليل.

كان الإمام(ره) يتّبع هذا البرنامج اليومي بشكل دقيق وثابت، لم يكن يسمح لشيء أن يحول دون تنظيم وقته وشؤونه اليوميّة. وكان يحرص على الاستفادة من عامل الوقت استفادة قصوى، ويستثمر وقته في توظيف القدرات والطاقات بشكل دقيق، كما كان يحرص على المراقبة والمحاسبة بدقّة بالغة.

إنّ اهتمام الإمام بعامل الوقت كان بحيث إنّه يمكن للإنسان أن ينظّم شؤونه على ضوء برنامج عمل الإمام، وإنّ المقرّبين منه – كأهل بيته والعاملين في مكتبه – كانوا يعمدون إلى تنظيم أعمالهم وبرمجتها على وفق موعد نومه واستيقاظه وتناوله الشاي ولقاءاته بالآخرين[1].. وكان الطلبة في النجف يضبطون ساعاتهم على ضوء برنامج ذهابه للحرم وحضوره للدرس ونحو ذلك.

وقد لفت الأنظار إلى هذا الأمر بشكل كبير عند استشهاد ولده السيّد مصطفى، وحين سمع الخبر لم يُلحَظ على وجهه أيّ أثر للأذى والقلق، بل اكتفى بالقول: لقد وهبنا الله نعمة وقد استرجعها الآن. وهو لم يسمح لهذا الخطب الجلل أن يوجد أدنى خلل في برنامج دروسه وعباداته ومطالعاته.

---

(1)- المصدر نفسه، ص١٠٢.

٢ - الزيـارة وعلاقـة الإمـام بالأئمـة عليهم السلام

إنّ التعلّق بالله - الذي إليه مرجع كل كمال بالذات - هو المحور الأساس لسائر التعلّقات الأخرى، وتلك التعلّقات ينبغي أن تدور مدار هذا المحور؛ ذلك أنّ «أيّ موجود ليس لديه شيءٌ من نفسه، وأنّ ما وصله ووصل إلى الجميع ألطاف ومواهب مستعارة، وفي الألطاف التي مَنّ الله - تعالى - بها علينا بواسطة الهداة الذين كُلِّفوا بهدايتنا»[1]. فينبغي أن نتلمّس الجذر الأساس في هذا التعلّق العميق والعلاقة الحميميّة بـ «الذين كلّفوا بهدايتنا» من خلال محوريّة التعلّق بالله - تعالى - لا غير. من هذا المنطلق، كانت علاقة الإمام بأهل البيت عليهم السلام بحيث لا يسع القلم وصفها والوقوف على تفاصيلها، فالإمام مغرم بأهل البيت عليهم السلام، ذائب في محبّتهم.

ويمكن أن نلحظ جانبا من جوانب هذا التعلّق من خلال الدقّة في مراعاة آداب الزيارة لحرم أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يسلكه الإمام(ره)، فكان يجذب بذلك انتباه الآخرين وهم يشاهدون تعبّده، ومداومته، ودقّته في أداء العبادات وفق ما ورد في الشريعة دون زيادة أو نقصان. وكذلك مواظبته على الحضور إلى الحرم بشكل منظّم دقيق، وذلك في كل ليلة، بعد مرور ثلاث ساعات على غروب الشمس، وخلال كل فصول السنة، لا يعيقه من ذلك الشتاء بمناخه البارد ولا الصيف بمناخه الحار، حيث كان يقطع المسافة التي تفصل بين منزله وبين الحرم المطهّر في مدّة لا تتجاوز السبع دقائق، مشياً على الأقدام. ويدخل إلى الباحة الخارجيّة للحرم من الباب الذي يواجه القبلة، قاصداً الزاوية الجنوبيّة حيث يخلع نعليه ويقرأ عبارات الاستئذان للدخول، ويهمّ بعدها بالدخول إلى الحرم الشريف.

في البداية، كان يقف لجهة رجلي أمير المؤمنين عليه السلام حيث يتلو دعاءً مختصراً، ومن ثمّ ينتقل إلى الطرف الجنوبي للضريح، مقابل صورة أمير

---

[1] وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص٢٦.

المؤمنين عليه السلام، ويتلو زيارة «أمين الله».

وخلافا لما جرت عليه العادة من إكمال الدورة حول الضريح باتّجاه موضع الرأس الشريف، واظب سماحته على العودة من تلك النقطة إلى الموضع السابق، ومنه إلى خلف الرأس المطهّر، حيث كان يجلس على الأرض ويصلّي ركعتين صلاة الزيارة، ومن ثمّ يتلو زيارة «الجامعة الكبيرة». ويخرج بعدها من الحرم بكل إخلاص ومراعاة للأدب.

واظب الإمام على زيارة أمير المؤمنين عليه السلام ليلاً بالزيارة الجامعة الكبيرة، التي تستغرق ساعة كاملة على الأقل، إلاّ أنّ الزائر إنّما يدرك بمفردات تلك الزيارة التي تشير إلى حقّ الأئمة عليهم السلام ومنزلتهم، أنّه يقف بين أولئك الصفوة من الأبرار الذين أمر الله الأمّة باتّباعهم والاقتداء بهم. فهي درس في الإمامة والولاية، ولم يلتزم الإمام بها عبثا، وما زال الإمام - رغم تخرّص المهزومين أمثال بني صدر الذي يردّد بكل وقاحة أنّ الأطباء قد يئسوا من حالة الإمام الصحيّة، ولم يعد قلبه يتحمّل العمل والحركة - يقرأ تلك الزيارة، ويتمشّى يوميًا لساعتين ممسكا بمسبحته، وتلهج شفتاه بالذكر، إلى جانب قراءته لزيارة عاشوراء[١].

مضافا إلى ذلك، كان الإمام(ره) يتّبع - أيّام الزيارة، وأيّام الجُمَع - برنامج منتظم وخاصّ للدعاء والصلاة وتلاوة القرآن، بحيث إنّه لو كان هناك شخص لا عمل له إلاّ هذا، لم يستطع الإتيان بعبادته بهذا النظام الدقيق[٢].

إنّ معظم الأشخاص الذين ينالون سعادة الإقامة بقرب أضرحة الأئمّة والعتبات المقدّسة الأخرى، يشعرون مع مرور الوقت بأنّ المسألة باتت عاديّة. وقد تمرّ عليهم أسابيع أو شهور دون أن يتشرّفوا بزيارتها، وذلك رغم حبّهم العميق وإخلاصهم الوثيق.إلاّ أنّ الإمام، وانطلاقاً من عشقه الذي لا يوصف لمقام الولاية الكبرى، ومن النظام الدقيق الصارم الذي أخذ به نفسه في

---

(١)- لمحات من حياة الامام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٤٩.

(٢)- أنوار العروج، مصدر سابق، ص ٧٣.

مختلف شؤونه وأعماله الخاصّة، وضع الزيارة ضمن برنامجه اليومي، شأنها شأن صلاة الجماعة والدروس الحوزويّة، ولم يترك مجالاً للأعذار والمستجدّات الطارئة لتشغله عنها، فتلغي ارتباطه اليومي مع أمير المؤمنين عليه السلام. ومن الجدير بالذكر، أنّه عندما كان سماحته يضطرّ إلى إلغاء زيارته لإحدى الأسباب الضاغطة، كان يقوم بتأدية شعائر الزيارة وأدعيتها داخل غرفته، وأحياناً وهو ممدّد على سريره[1].

إنه وصال الحبيب الذي يأخذ بلبّ العاشق فلا يخبو لهيب عشقه حتّى في اللحظات التي تمتدّ فيها الموانع والسدود لتحول دون الوصول والوصال، باستثناء بعض الحالات الطارئة: عندما كانت تُعلن الأحكام العرفيّة ويفرض نظام منع التجوّل في الأنحاء كافّة، عند ذلك يرتقي الإمام سطح الدار ويولي وجهه شطر المرقد المقدّس فيتلو الزيارة والدعاء. ولهذا نجده في آخر ليلة له في النجف الأشرف يبثّ شوقه بحسرة: لقد كنت مستأنسا هنا بالحرم المطهّر، ولكنّ الله وحده يعلم كم عانيت في هذه الديار.

وكان الإمام(ره) يذهب إلى كربلاء لزيارة سيّد الشهداء عليه السلام في أوقات زيارته ضمن برنامج منظّم وثابت. وفي عشرة عاشوراء كان يواظب على تلاوة زيارة عاشوراء المعروفة، بما فيها من سلام يكرّره مئة مرّة، ولعن الظالمين لمحمد وآل محمد عليهم السلام مئة مرّة. ولا يكاد يُذكر أمامه اسم الإمام الحسين عليه السلام حتى تجري دموعه تلقائيًا على خدّيه، رغم اشتهاره بالصبر والجلد على المصائب، فهو الذي احتمل شهادة نجله البكر السيّد مصطفى بقوله: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، من دون أن تنزل قطرة واحدة من دموعه الشريفة، إلاّ أنّه لا يتمالك نفسه في مجالس العزاء على سيّد الشهداء، فلا يكاد الخطيب يقول: السلام عليك يا أبا عبد الله، حتى تنهمر دموعه بغزارة ويرتفع صوته بالنحيب[2].

---

[1]- أنوار العروج، مصدر سابق، ص٧٣ – ٧٤.

[2]- لمحات من حياة الامام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٤٩ – ١٥٠.

وكما في النجف الأشرف، فقد حرص الإمام على ديمومة هذه العلاقة الحميميّة بأهل البيت عليهم السلام حتّى بعد سفره إلى باريس، يقول أحد مرافقي الإمام أنّه: جرت العادة في باريس أن نكتب كافّة الأخبار والوقائع التي كانت تشهدها الساحة السياسيّة الإيرانيّة، والتي تصلنا عبر الهاتف، كما كنّا نسجّل بعض الأحاديث، ونقدّمها للإمام صباحا. ذات يوم دخلنا عليه، وكان ذلك هو اليوم الأوّل من شهر محرّم الحرام، فرأيناه يتمشّى في غرفته، وهو مشغول بزيارة عاشوراء طبق عادته في السنوات الماضية في شهر محرّم - حيث كان يتشرّف صباحا بزيارة أمير المؤمنين عليه السلام، ويقرأ زيارة عاشوراء - فقد واصل برنامجه في باريس، قال لنا: من الآن فصاعدا لا تدخلوا عليّ بالتقارير الإخباريّة في هذه الساعة[1].

وكان يقف بشدّة ضد أولئك الذين يهاجمون الشعائر الحسينيّة، ليؤكّد على ضرورة ديمومتها بهذا الشكل، ويطلق عبارته المشهورة: إنّ كل ما لدينا هو من بركة شهري محرّم الحرام وصفر، ولولاهما لما بقي من الإسلام إلاّ اسمه ومن القرآن إلاّ رسمه[2].

إنّ هذا النحو من الاندفاع الحميم يحتّم على صاحبه مراعاة أدقّ التفاصيل في سلوك أدب الزيارة، ولا يمكن تفسير هذا الاندفاع إلاّ على أساس مدرسة العشق الإلهي التي نهل الإمام الخميني(ره) من معينها، وتلك مدرسة كان قد أسّس بنيانها الشامخ التلميذ الأكبر علي بن أبي طالب عليه السلام، وانقدحت شرارتها الأولى من مشكاة الوحي والخلق العظيم الذي هو نعت رسول الله صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم. فجاءت العبادات - كما مارسها الإمام الخميني - انبعاثا حيّا لتلك الروح العلويّة الملهمة التي أوقدت شعلة العشق وحرارة الإيمان في قلوب المحبّين الموالين، ولا ريب في أن سرّ هذا الارتباط العميق بالأئمّة عليهم السلام يرجع إلى مستوى الخبرة الإيمانيّة التي تجلّت في وعي الإمام الروحي، وهو

---

(1)- المصدر نفسه، ص١٤٥.

(2)- المصدر نفسه، ص١٥٠.

وعي بما للأئمّة من مقامات، بلغوا بها ذروة الحضور في محفل القدس الإلهي، فصاروا الشهود على عالم الشهادة والملكوت الأعلى. إننا نقرأ في زيارة الأئمّة عليهم السلام: وأشهد أنّك حي ترزق؛ تسمع كلامي وتردّ سلامي. وهكذا كان الإمام حين يزور العتبات المقدّسة وقبور المعصومين الطاهرة، وكأنّه يرى الإمام ماثلا أمام عينيه.

يقول أحد المقرّبين من الإمام: كان الإمام غالبا ما يوصي المقرّبين منه وتلامذته بتأمّل الزيارة الرجبيّة لكي لا يسارعوا إلى تكذيب بعض أولياء الله في ما يبلغونه من كرامات ومقامات، فقد ورد في مقطع من تلك الزيارة:«فلا فرق بينك وبينهم إلاّ أنّهم عباد مربوبون»، فبعض الأولياء يتمتّعون بكافّة القوى الإلهيّة، نعم لقد بلغ الإمام مرحلة عظيمة من التهذيب والسمو والكمال، ولا أرى أنّ ذلك يعود إلى ما كان يمتلكه من علم، وفقه، وفلسفة، وعرفان، بقدر ما يعزى إلى إخلاصه، وعبوديّته، وورعه، وتقواه[1].

٣ - الدعاء وتلاوة القرآن

هذا النمط المتميّز في طبيعة الممارسة للطقس العبادي، والذي جاء التعبير عنه في الرواية بلسان: «عشق العبادة فعانقها»[2]، إنّما يصدر عن دافع عميق واعتقاد راسخ يتجلّى ظاهراً من خلال أدب السلوك، ويتجلّى باطنا من خلال الوعي بالمضمون الروحي والمعنوي للعبادة؛ فالقرآن الكريم يتلقّفه الإمام بوصفه خطاب إلهي مباشر: لا يحدّه ظهور اللفظ، وإنّما يحدسه العاشق باطنا بالمشاهدة الحيّة فيما يشبه تجربة الوحي في لحظة انبثاقه الأولى، بحيث يتفتّق عن وعي متميّز بالمضامين العليا، شأنه في ذلك شأن سائر العبادات حين تتحوّل في مسرح العشق والمغازلة والعناق إلى مقام يفنى به

---

[1] المصدر نفسه، ص١٥٥.

[2] الشيخ الكليني، الكافي، ج٢، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، ط٤، ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلامية - طهران، ص٨٣.

العاشق وتنطمس به إنيّته وأنانيّته؛ ولا يعود ثمّة فرق بين العبادة والعابد؛ فقد صار الإمام(ره) بحيث لا يتيسّر لمدرِك أن يتذوّق سرّ سلوكه العبادي إلاّ بسبيل المشاهدة والاستبطان:«وأمّا التزامه تلاوة القرآن وقراءة الأدعية والعبادة، فهو سمة مهمّة في سلوكه، ولا يمكن لأحد أن يدرك هذا السلوك ما لم يشاهده عن كثب»[1].

يقول الشيخ محمّد علي الأنصاري الكرماني - أحد المقرّبين الملازمين للإمام(ره) - في حديث له عن هذا العبد الصالح(ره): إلى جانب مظاهر الجرأة والشجاعة التي تجلّت في روح الإمام وتحرّكه في سبيل الله، لم يكن يغفل أبدا عن الأذكار والنوافل والمستحبّات؛ فكان يلهج بالتسبيح والأذكار والزيارات حتّى أثناء المشي؛ فإنّ السبحة لا تفارق يده، وذكر الله والدعاء لا يفارقان شفتيه، ويواظب على تلاوة القرآن بذات الصوت الملكوتي عدّة مرات في اليوم، كنا نجده مشغولاً بتلاوته كلما دخلنا عليه، وينقل نجله السيّد أحمد أنّه استيقظ ليلة على سماع صوت شجي يتهجّد، فقام ليشاهد الإمام يصلّي في عتمة الليل، وقد رفع يديه إلى السماء، والدموع تنحدر من محاسنه الكريمة[2].

أما النظام الذي اتبعه الإمام في تلاوة القرآن، فينقل أنّه كان يتلو ما تيسّر من القرآن في سبعة أوقات من كل يوم، يكمل فيها أربعة أجزاء يوميًا، والأوقات هي: قبل صلاة الفجر، بعد صلاة الفجر، في الساعه التاسعة صباحا، قبل صلاة الظهر، عند العصر بعد قيامه بممارسة رياضة المشي، قبل صلاة المغرب، وبعد صلاة العشاء.

وفي شهر رمضان المبارك، كان الإمام(ره) يختم القرآن من عشرة إلى خمسة عشر مرة، فكان يقرأ كل يوم عشرة أجزاء، فيختمه كل ثلاث أيّام مرة. وقد التزم بتلاوة عدد من صفحات القرآن الكريم (حزب أو أكثر) كلّ يوم، ولم يترك القرآن ونافلة الليل حتّى في أيّامه الأخيرة، وحتّى في الليلة التي أجريت له فيها العمليّة الجراحيّة وصبيحتها.

---

[1]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٧١.

[2]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٤٨.

٤ - التهجّد وصلاة الليل

بلغ من عناية الإمام(ره) واهتمامه بإقامة صلاة الليل، وتهجّده بالأسحار أنّه - وبحسب نقل السيّد حميد روحاني[١] -:«حين نقل الإمام ليلة ٥ نيسان ١٩٦٤م من سجنه في طهران إلى مدينة قم المقدّسة، هبّ الأهالي بجموعهم الغفيرة لاستقباله، وبصورة لا توصف من الازدحام الذي اكتنف المنزل إلى ما بعد منتصف الليل، ولم تجدِ المحاولات نفعا في إقناع الناس بالتفرّق إلى منازلهم. ولقد شاهد الذين رافقوا الإمام والمقيمون في المنزل كيف أنّ سماحته وبعد أن استراح فترة لا تتجاوز الساعتين، نهض لأداء النوافل والتهجّد. ولقد أكّد لي الأخوة الذين قضوا فترة من حياتهم بمعيّة الإمام أنّه منذ أكثر من خمسين عاما والإمام لم يكن يغمض له جفن قبيل بزوغ الفجر. ذلك أنموذج بسيط يبيّن لنا توجّه سماحته نحو الأمور العباديّة والمعنويّة. هذا بالإضافة إلى أنّه أحد السياسيّين البارزين؛ إنّه رجل السياسة وفارس ميدانها بكل ما للكلمة من معنى. إننا نرى في شخصه منتهى الخضوع والخشوع والتبتّل، بعيدا عن الاستكبار والغرور وحبّ الذات، لدرجة تدعو إلى التأمّل والإعجاب»[٢].

إنّ آثار الدموع على وجه الإمام المبارك تحكي قصّة بكائه في منتصف الليل، وأدائه لصلاة الليل. يقول الأستاذ أنصاري كرماني:«خمسون عاما لم يترك الإمام(ره) صلاة الليل، لقد أقامها في مرضه وفي صحّته، وقد أقامها في السجن وخارجه، وحتّى في المنفى، وأقامها وهو على سريره في مستشفى القلب.

مرض الإمام عندما كان في قم، وأمر الأطبّاء بنقله إلى المستشفى بطهران، حينها كان الهواء باردا جدا، والجليد يغطّي الشوارع كلّها، بقي الإمام

---

[١]- هو أحد مؤرخي الثورة الاسلامية، لم ينفك عن ملازمة الإمام في النجف وباريس وقم، له عدة كتب، من بينها «دراسة تحليلية لثورة الإمام الخميني».

[٢]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٥٢.

في سيارة الإسعاف لعدّة ساعات حتّى وصلنا مستشفى القلب، وفي الليل استيقظ الإمام وأدّى صلاة الليل.

من جهة أخرى، عندما قدم الإمام من باريس ليلا، وكان مرافقوه قد ناموا جميعا، استيقظ ليلا وحده، وأدّى صلاة الليل في الطابق العلوي من الطائرة.. ينقل بعض أفراد الحرس الثوري أنّه عندما كان الإمام يقوم لصلاة الليل، كان يتفقّد هؤلاء الحرس ليطمئن على راحتهم وأوضاعهم»[1].

وينقل أحد أساتذة قم المقدّسة أنّه حلّ ضيفا ذات ليلة على السيّد مصطفى الخميني(ره) وذلك قبل مرحلة سجن الإمام ونفيه عن إيران، وكان الإمام في ذلك الوقت يسكن في نفس الدار، يقول الأستاذ الذي كان ضيفا على السيّد مصطفى:«انتبهت في منتصف الليل من نومي فزعا على صوت بكاء ونحيب في جانب من جوانب الدار، فقلت في نفسي ماذا حدث؟! فلقد أثّر فيّ البكاء وأقلقتني الهواجس، فأيقظت الحاج السيّد مصطفى - الذي كان نائما إلى جانبي - ليرى ماذا يحدث، وسألته، فأجابني قائلا: إنّ والدي مشغول في تهجّده وعبادته. ثمّ دلف السيّد مصطفى إلى فراشه من جديد، ونام»[2].

وليس من فضول القول أن يصفه أصدقاؤه بـ (العابد الزاهد)؛ فصلاته في جوف الليل ودعاؤه وبكاؤه وأنينه وقت السحر كلّها تُبكي المرء رغما عنه[3]. وهذا منتهى الخشوع والروحانيّة في سيرة الإمام العباديّة.

٥ - الصيـام

كان الإمام(ره) يصوم شهر رمضان في النجف الأشرف في ذلك المناخ الذي لم يألفه؛ وعلى الرغم من كبر سنّه، وارتفاع حرارة النجف الى درجة قد تبلغ الخمسين، وامتداد فترة الصيام إلى ثمانية عشر ساعة يوميّا، مع ذلك

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٤٧.

[2]-المصدر نفسه.

[3]-الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٤.

كان لا يتناول الفطور إلاّ بعد أداء صلاتي المغرب والعشاء ونوافلهما وسائر المستحبّات[1].

لا شيء يفسّر حقيقة هذه الروح التي جسّدها الإمام(ره) في مسيرته العباديّة، سوى أنّها نتاج ذلك الارتباط الوثيق بالمعبود، والذي يتحقّق من خلال الاتّحاد بمرتبة من مراتب العبادة «عَشِقَ العبادة فعانقها»[2].

ويحصل - بسببٍ من دافعيّة ذلك العشق والعناق - تفاعل حقيقي وتدرّج معنوي، بحيث ينتقل السالك من مقام إلى مقام أرقى، ويتّحد معه اتّحادا وجوديّا؛ ويكون المقام المعنوي الإنساني على حسب سفر السالك المعنوي، ويكون لكل سالك حظّ ونصيب من صلاته وعبادته على حسب مقامه.

وإذا كان المقرّبون من الإمام(ره) يقرّون بعجزهم وقصورهم عن وصف عبادة الإمام(ره) ويندهشون من حالاته الروحانيّة، فأولى بنا نحن أن نصرف عنان القلم عن الخوض في ذلك إلى غيره.

يقول الشيخ رحيميان: «ليس هناك من بعد، أو بصيرة، أو مجهر، أو أيّ جهاز استكشاف، يقوى على سبر أغوار مقام العبوديّة الخالصة التي جسّدها الإمام، وخلوص النيّة التي طبع عليها. ثمانون سنة من العبادة الخالصة، ثمانون سنة من المناجاة الليليّة، ثمانون سنة من الرياضة الروحيّة والجهاد الأكبر والأصغر، ثمانون سنة من السير والعروج إلى الله. أين نحن من هذا المستوى الإيماني الرفيع!»[3].

إنّ هذا يدعو إلى الاعتراف بقصورنا عن إدراك الكثير من جوانب شخصيّة الإمام(ره)، وهي حقيقة طالما أقرّ بها المقرّبون من الإمام(ره): «وبعيدا عن المبالغة، ينبغي القول، إنّ هناك نواحٍ كثيرة في شخصيّة صاحب تلك الروح الملكوتيّة، وذلك الإنسان الفذّ الجليل، ما زالت

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص٦١.

[2]- الكافي، مصدر سابق، ص٨٣.

[3]- أنوار العروج، مصدر سابق، ص٢١.

مجهولة بالنسبة لنا حتّى الآن»[1].

بل أقرّ بذلك حتّى الخصوم، فيقول «هنري برشيت»: «لا شكّ أنّ آية الله الخميني هو من كبار القادة التاريخيّين في هذا القرن، ويندر وجود نظير له في نفوذه المعنوي وجاذبيّته القياديّة، - ليس في إيران وحسب، بل وعلى الصعيد العالمي أيضا -، فقد استقطب اهتمام القوى الكبرى.

أعتقد أنّ المؤرخين سيوضحون للعالم يوما، أنّ آية الله الخميني لم يُعرَف بصورة صحيحة. إنّه كان بحقّ الرجل الذي لا يرضى إلا بحكم الله، ولا يساوم أحدا..»[2].

وحسبنا هنا أن نحاول تلمّس ذلك التميّز في روحانيّة الإمام(ره) من خلال حضوره القوي وجاذبيّته الفائقة التي تركت تأثيرا جليّا في نفوس الذين التقوه، وعبّروا في أقوالهم عن بالغ إعجابهم بشخصيّته، ومدى تأثّرهم به.

يقول الأستاذ «رابين وودزورت كارن» في وصف لقائه بالإمام(ره) الذي حصل صبيحة يوم الأربعاء ٩ شباط ١٩٨١ ميلادية: «عندما فتح الباب، شعرت أنّ عاصفة من القوّة والطاقة قد دخلت فجأة، وزلزلت أركان المبنى الذي كنّا نجتمع فيه. وقد لفت الأنظار إليه بشكل، بحيث اختفى كلّ شيء آخر من أمام أعيننا. أجل، كان شعلة من النور نفذت بقوّة إلى ضمائر وقلوب كلّ مَن كان هناك، حيث إنّني - بكل بساطة - شعرت بتلك القوّة الهائلة والطاقة المنبعثة منه، ولمست إشعاعات النور الصادر من وجهه.

---

[1] نهج الإمام في بيان القائد، ط١، بيروت، ١٩٩٨م. ص١٢. (نصوص للسيد الخامنئي «حفظه الله» مستقاة من كتاب حديث الشمس).

[2] مقابلة أجرتها إذاعة صوت أميركا بعد أيام من وفاة الإمام(ره) مع «هنري برشيت» الذي شغل منصبي الملحق السياسي ثمّ العسكري في السفارة الأميركية في طهران ما بين عامي ١٩٧٢ - ١٩٧٨م ثمّ شغل منصب مسؤول الشؤون الإيرانية في وزارة الخارجية الأمريكية. وهي لعرفان محمود منشورة على الانترنيت بعنوان «التعبد الخالص لله في سيرة الإمام الخميني(ره)»، الموقع: مؤسسة الأبرار الإسلامية.

في الحقيقة، مِن بين كلّ الكبار والقدّيسين الذين التقيتهم، لم أرَ منهم أيّ نظير للخميني في تأثيره على الآخرين. وكلّ مَن يمكنه أن يرى بوضوح، ويشعر بوجوده بصدق، لن يساوره أدنى شكّ في صدق وإخلاص هذا الرجل. هذا الإخلاص كان متجسّدا بوضوح في أجواء اللقاء، وفي حركة أعضاء جسده، وفي تلويح يديه، وفي الشعلة المحيطة بشخصيّته، وبالتالي في سكونه وهدوء ضميره.

قد يتبادر إلى ذهن القارئ العزيز - وهو يقرأ هذا المدح والإطراء من قبلي لشخص الخميني - أنّني أفرطت في ذلك كثيرا، إلاّ أنّ عليه أن يعرف أنّ ما كنت أحمله في ذهني عن هذا الرجل كان خليطا من التناقضات. ولكن الذي خرجت به من هذه التجربة العمليّة لا يرتبط أبدا بآرائي وعقائدي»[1].

[1]- مجلة الراصد، العدد العشرون، حزيران ١٩٩٢م، ص٤١.

الفصل الثالث

تجلّيات العبادة في نطاق السلوك الاجتماعي للإمام (ره) (شمول العبادة)

علاقة العبادة بالمجتمع

اتّضح في مطلع الفصل السابق، أنّ العبادة هي الثناء على المعبود تقرّبا منه - تعالى -، والخضوع والانقياد لأمره، وهذا الثناء أو الانقياد يتجلّى في النشاطات التي يقوم بها الأفراد بشكل شخصي إزاء خالقهم وموجِدِهم. وأمّا النشاطات التي تنظّم علاقة الأفراد في داخل المجتمع، فتندرج بحسب التقسيم الفقهي في الشريعة الإسلاميّة تحت عنوان (المعاملات والأحكام) سواء العلاقات الشخصيّة منها أو العامّة.

وعموما، فإنّ الشرعيّات تتوزّع في تقسيم ثلاثي إلى عبادات ومعاملات وأحكام. وتعتبر (المعاملات والأحكام) ذات طابع اجتماعي مباشر؛ إذ تندرج في هذين الحقلين مسائل ترتبط بتنظيم العلاقات العامّة التي يحصل فيها التبادل بين أبناء المجتمع. بينما يفترض في بحث (العبادات) الاقتصار على العلاقة الفرديّة بين الإنسان وخالقه، وتحديدا في جانبها الروحي الإيماني فحسب.

بحسب هذه النظرة الأوليّة، يصبح التساؤل عن طبيعة العلاقة بين العبادة والمجتمع تساؤلا ذا معنى، ويصبح البحث عن الرابط بينهما بحثا مشروعا. ولا يعنينا هنا البحث عن شكل هذه العلاقة وما يستدعيه ذلك من التوسّع في

مفردتي العنوان، واستعراض النصوص الروائيّة وما شاكل ذلك من علوم يمكن أن تزوّدنا برؤية واضحة عن طبيعة تلك العلاقة، فالخوض في ذلك يخرجنا عن الإطار المرسوم.

على أنّه يمكن أن نتصوّر علاقة العبادة بالمجتمع على نحوين:

النحو الأول: التوسّع في مفهوم العبادة بحيث يشمل جميع أقسام الشرعيّات بما فيها المعاملات والأحكام، ويبرّر لهذا التوسّع أنّه في مفهوم العبادة نجد الطاعة والخضوع والانقياد لله - تعالى -، ويمكن تصوّر هذا المعنى في كل فعل بشري سواء أكان من النوع العبادي البحت أم لم يكن. وقد جرى التأكيد على مفهوم شمول العبادة بهذا المعنى، بحيث يكون الإنسان خاضعا في كل تصرّفاته وسلوكيّاته الصادرة منه للموازين والضوابط الشرعيّة، ومهما يكن فلا يقتصر مفهوم الانقياد والطاعة هنا على الفعل العبادي البحت.

ولعلّه بهذا الاعتبار تدرج المعاملات في بعض التقسيمات تحت قسم العبادة، فيذكر «الطريحي» في كتاب «مجمع البحرين»، نقلاً عن «المحقّق الطوسي» في «الأخلاق الناصريّة»، أنّ الحكماء جعلوا عبادة الله على ثلاثة أنواع، وهي:

أ - ما يجب على الأبدان، كالصلاة والصيام والسعي في المواقف الشريفة لمناجاته - جلّ ذكره -.

ب - ما يجب على النفوس، كالاعتقادات الصحيحة: من العلم بتوحيد الله، وما يستحقّه من الثناء والتمجيد، والتفكّر في ما أفاضه الله - سبحانه - على العالم من وجوده وحكمته، ثمّ الاتّساع في هذه المعارف.

ج - ما يجب عند مشاركات الناس في المدن، وهي في المعاملات، والمزارعات، والمناكح، وتأدية الأمانات، ونصح بعض لبعض بضروب المعاونات، وجهاد الأعداء، وحماية الحوزة[1].

---

[1]- فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، تحقيق أحمد الحسيني، ج٣، ط٢، ١٩٨٣، بيروت مؤسسة الوفاء، ص٩٥.

ويلحظ في التقسيم أنّ الحكماء أدرجوا المعاملات والأحكام (القسم الثالث) تحت عنوان العبادة. وبهذا المعنى الوسيع تتجاوز العبادة إطارها كنشاط جسماني ونفساني إلى الإطار الاجتماعي. وبذلك يتّضح أحد الوجوه التي تتّسم بها العبادة بالصبغة الاجتماعيّة، ويثبت جانب من جوانب الشرعيّات بوصفه عبادة اجتماعيّة، ولكن تظلّ الحاجة قائمة لإثبات الطابع الاجتماعي للعبادة بمعناها الاصطلاحي البحت؛ ذلك أنّ العبادة الاصطلاحيّة تختزن بعدا اجتماعيّا لا يقل شأنا عن العبادة بالمعنى الشمولي، كما سنرى لاحقا.

النحو الثاني: جرت العادة على تقسيم العبادة إلى عبادة فرديّة تتمثّل في العلاقة بين الفرد وربّه، وفي الخضوع له على المستوى الفردي. وإلى عبادة اجتماعيّة تتمثّل في الإنسان بصفته خليفة وكائن اجتماعي يلتزم التواصل وتحمّل المسؤوليّات والتفاعل الاجتماعي البنّاء.

وينبغي التأكيد هنا على أنّ انطباق الصبغة الاجتماعيّة بشكل مباشر على قسم من أقسام العبادة لا يعني استبعادها عن سائر الأقسام، فلا توجد عبادة فرديّة معزولة كليّا عن البعد الاجتماعي، بل تتشابك الغايات الفرديّة في العبادة مع الغايات الاجتماعيّة؛ بحيث يرتبط إتيانها بمدى انتظام الفرد في علاقته مع ربّه ومع مجتمعه، فكلّما كان الفرد أكثر تفاعلا في العبادة وتأثّرا بها، ينعكس ذلك إيجابا على المجتمع: «من أصلح ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس»[1]، وقد جرى التأكيد في نصوص علماء التربية والأخلاق على أنّ إصلاح النفس لا ينفصل عن إصلاح الآخرين، وإلاّ فإنّ استبدال السعي من أجل نجاة الآخرين بسعي الإنسان في نجاة نفسه، ينمّ عن سوء فهم: ليس للشريعة الإسلاميّة فحسب، وإنّما لماهيّة المجتمع والحياة الاجتماعيّة للإنسان أيضا. من هنا يتمحور الحديث حول دور العبادة في تشكيل البنيان

---

[1]- السيّد البروجردي، جامع أحاديث الشيعة، ج١٢، ١٤٠٧هـ، منشورات مدينة العلم - آية الله العظمى الخوئي - قم - إيران، ص٢٦٩.

الاجتماعي وإسهامها في تدعيمه وتنشطيه.

وهنا أيضا سوف نلتقي مع مفهوم شمول العبادة، لكن دون أن نتجشّم عناء التوسعة في مفهوم العبادة، فتغدو العبادة فرديّة بسبب ما لها من مصلحة فرديّة، كما تصير العبادة اجتماعيّة بسبب احتوائها على مصالح اجتماعيّة، وتكون سياسيّة أيضا لاحتوائها على مصلحة سياسيّة. ولا يقصد بالتنويع هنا الفرز التصنيفي بحيث تقتصر بعض العبادات على المصالح الفرديّة فحسب، ويقتصر بعضها الآخر على مصالح اجتماعيّة بحتة، فتندرج العبادات بذلك ضمن تصنيفات متباينة! وإنّما يقصد بالتنويع أنّ العبادة الواحدة تتوفّر على مصالح فرديّة واجتماعيّة وسياسيّة في آن واحد، وأنّ المشرّع لاحظ هذه الجوانب المتنوّعة معا في عالم التشريع، كما لاحظ دور العبادة على مستوى الإعداد النفسي والروحي في عالم التكوين، وما يمكن أن يترتّب على ذلك من آثار إيجابيّة وبنّاءة على مستوى الفرد والمجتمع.

والملاحظ بحسب النصوص الروائيّة أنّ الأفضليّة تكون للعبادات التي تُؤدَّى بصورة جماعيّة، ويكون طابعها الاجتماعي أقوى. ويكمن وراء هذا الاهتمام بالعبادة الجماعيّة دفع المجتمع إلى أسمى درجات الترابط والتلاحم. وليس من المجازفة في شيء القول: إنّ نجاح العمل الاجتماعي مرهون بارتكازه إلى الجانب الشرعي تحديدا؛ حيث تتحوّل خدمة المجتمع إلى عبادة يؤدّيها المرء في أجواء من التقرّب إلى الله - تعالى -، ويعيش المجتمع حالة من التسابق والمسارعة إلى الخيرات، ويسود عامل التفاعل البنّاء بين الأفراد لتحقيق الإنجازات المطلوبة اجتماعيّا، وبهذا تؤدّي العبادة دورا اجتماعيّا فاعلا في خدمة الإنسان ورقي المجتمع.

وتتجلّى أهميّة العبادة ودورها الفاعل في علاقات الإنسان داخل أسرته التي هي نواة المجتمع الأولى. فلم يعد خافيا على أحد، ما للعبادة من دور تربوي بنّاء ينعكس أثره الإيجابي بوضوح على مستوى علاقة الإنسان بأسرته، ومراعاة شؤونها، والاهتمام بتربية الأبناء وفق الضوابط الشرعيّة الصحيحة،

بل إنّ هذا النوع من السلوك الاجتماعي يرتقي بنظر الإسلام إلى مستوى العمل العبادي، ولا يقلّ عنه شأنا. ومن هنا جاءت النصوص الشرعيّة لتدعيم البِناء الأُسَري، من خلال الحثّ على الكدّ والعمل، بغية توفير العيش الكريم لأفراد الأسرة بطرق الكسب المشروعة، ومعاملة الأهل بلطف، واحترام آراءهم، وتقدير مشاعرهم، والحفاظ على صحّة أبدانهم، وتوجيه سلوكهم، ونحو ذلك من عوامل تسهم إلى حدّ كبير في تشكيل الأسرة التي يريدها الإسلام؛ لتكون نواة لمجتمع صالح متماسك.

كما تتجلّى أهميّة العبادة على مستوى المجتمع بما تمثّله في جانبها التربوي من ضمانة رادعة، تحول دون انتشار المفاسد والرذائل والموبقات؛ ذلك أنّ العبادة تسهم إسهاما فعّالا في بِناء علاقات طيّبة بين أبناء المجتمع، ونشر الفضائل والخيرات، والتعاهد على بِناء مجتمع فاضل يسوده التعاون والتكافل، والعمل على توحيد القلوب على المحبّة، وانتزاع بذور الأنانيّة والسلبيّة، وإحلال الروح الجماعيّة محلها، وبذلك تسهم العبادة في إيجاد مجتمع إنساني متماسك متعاون غير مفكّك، يسوده الوئام والتراحم. قال رسول الله ﷺ: **«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»** [1].

ولا يقتصر دور العبادة على تماسك البِناء الاجتماعي بما توحيه من دلالات في النطاق العام فحسب، بل هي تساهم بشكل مباشر - بوصفها ممارسة ذات وظيفة هادفة - في تدعيم الأسس الاجتماعيّة بين البشر؛ فالحج لا يقتصر في مناسكه على الجانب التربوي والروحي والبدني، بل يشتمل على أبعاد ماليّة واجتماعيّة وسياسيّة، فهو عبادة اجتماعيّة يجتمع عليها المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأشكالهم، وتتحطّم فيها فوارق الحياة الدنيا، سواء بين الأغنياء والفقراء، أو بين الحاكمين والمحكومين. فالكلّ يتّخذ الكعبة وجهة واحدة، ويتمرّس في تحمّل الصبر

---

[1]- محمّد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ط١، دار الحديث، ص٢٧-٢٨.

واحتمال المشاق، ويشهد منافع له في دينه ودنياه، هذه المنافع تتناول جميع جوانب الحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة. وبهذا تقوم مناسك الحج كعبادة بدور جوهري في تكريس الوحدة ومبدأ المساواة والتواصل بين المسلمين.

والحجاب ليس فقط عبادة فرديّة، بل هو أيضا عبادة اجتماعيّة؛ فالمرأة الملتزمة بالحجاب تصون نفسها، وتساهم في الحدّ من انتشار الفساد والرذيلة الناشئين من التبرج والسفور، ما يشكل حصانة للمجتمع. والإنفاق عبادة اجتماعيّة، وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو أصل عبادي، وأخلاقي، وسياسي، واجتماعي. بل هو من أهم الواجبات الاجتماعيّة: «**من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين، فليس بمسلم**»[1]. وهكذا سائر العبادات قد لوحظ فيها جانب تقوية وشائج الصلة بين المسلمين بما يؤدّي إلى تماسك بنيان المجتمع الإسلامي ككل.

إنّ العبادة تدعو إلى برّ الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الظن بالآخرين، وكظم الغيظ، والصدق، والاستقامة في القول والعمل، وتقوية أواصر القربى، والإيثار، والتعاون على البرّ والتقوى، والتسابق في الخيرات، والمحافظة على وحدة المسلمين، والوفاء بالعهود والالتزامات الاجتماعيّة، وملء المساجد، وبذل الزكاة والخمس، وحفظ بيت مال المسلمين، والمواظبة على الجماعة، واحترام القوانين والأنظمة والممتلكات العامّة، والحثّ على العمل، وعدم هدر الوقت. ونحو ذلك من أمور تعتبر جوهريّة في تماسك المجتمع وتآلفه وصونه عن التفكّك والانهيار.

شمول العبادة

في ما يلي، نمرّ على بعض العيّنات المسلكيّة التي جادت بها النصوص المتعرّضة لمواقف الإمام في النطاق الاجتماعي، ذلك السلوك الذي نعلم

(1)- جامع أحاديث الشيعة، مصدر سابق، ج١٦، ص١٧٢.

يقينا أنّه ينبع من دافع إيماني عميق، وجهد حثيث، ناتج عن الصقل والتهذيب الدائبين، ما يدفعنا للاطمئنان بصدوره عن قبس ولائي، يجعلنا نركن بثقة تامّة إلى اعتباره من علائم الحقّ والرشد والخير، كونه من المصاديق البارزة التي ينطبق عليها حديث الإمام الصادق عليه السلام: **«كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم؛ ليروا منكم الورع، والاجتهاد، والصلاة، والخير، فإنّ ذلك داعية»**[1].

وقد نبّه الإمام الصادق عليه السلام - بقوله هذا - الأمّة إلى أنّ الهداية إلى سبيل الصلاح والخير لا تتمّ إلاّ عن طريق الإرشاد بالأقوال والأفعال؛ فالإنسان المهذَّب الجيّد في ورعه وتقواه يكون مثالا حيّا، وأنموذجا بارزا للآخرين في السير نحو سبيل الهداية والرشاد؛ ومن المؤكَّد أنَّ الإنسان المهذَّب الذي بذل من الجهد والسعي الشيء الكثير حتّى تسنّت له السيطرة على نفسه، فأحسن تربيتها وقيادها، سيكون في أعماله وأفعاله دليل هداية وإرشاد للآخرين. ومن النماذج التي تعدُّ قدوة في هذا المجال سيرة الإمام الخميني(ره)؛ فقد كان داعية في قوله، كما كان داعية في عمله، وكان داعية في حركته، وكان داعية في سكونه[2].

ومن المفيد هنا إعادة التذكير بالحقيقة التأسيسيّة التي ألمحنا إليها في التمهيد، نقلا عن بعض المقرّبين من الإمام(ره)، فإنّ «الأعمال الاختياريّة التي تصدر عن فاعل مختار، لها مظهر محسوس وجليّ للعيان؛ نراه بأعيننا أو نسمعه بآذاننا، ولكنّ الذي يهمّنا من هذه الأعمال الاختياريّة هو أساسها وجذرها الذي يصدر الفعل استنادا إليه. وعلى هذا الأساس، فإنّني إذا أردت التحدّث عن طريقة التعامل الاجتماعي لدى سماحة الإمام(ره) فإنّي أستطيع فقط أن أوضح أعماله الخارجيّة المنظورة، ونحن لو تأملنا في أعماله التي تكشف عن دافع خاص وتعرفنا عن طريق ذلك نيّته السامية في تعامله وأقواله،

---

[1]- المصدر نفسه، ج١٤، ص٢٦٦.

[2]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٠١.

فعند ذاك يتوضّح لنا أنّه ذو روح عظيمة، ومقام سام، يعيد إلى الأذهان - بعد مشاهدة أسلوبه - أسلوب الأنبياء والمعصومين»[1]. فلا ينبغي أن نغفل نورانيّة العمل حين يكون صادرا عن أمثال الإمام من الربّانيّين، ذلك أنّ النص يطلعنا فقط على صورة العمل الخارجيّة، ولا يفصح عن حياة الروح فيه.

وفي هذا السياق نشير إلى أمرين ترتكز إليهما الروحيّة الاجتماعيّة لدى الإمام:

الأول: إنّ نظرة الإمام إلى المجتمع الإنساني تنبع من نظر الرحمة الإلهيّة الشاملة لجميع المخلوقات، وهو ما يؤكّد عليه في بعض وصاياه العرفانيّة لولده السيّد أحمد، إذ يقول: «إذا استطعت بالتفكّر والتلقين، فاجعل نظرتك إلى جميع الموجودات - وخصوصا البشر - نظرة رحمة ومحبّة. أوَليست الموجودات كافّة - والتي لا حصر لها - واقعة تحت رحمة ربّ العالمين من جهات عديدة؟ ثمّ أليس وجود حياتها، وجميع بركاتها، وآثارها من رحمة الله ومواهبه على الموجودات؟ وقد قيل: كل موجود مرحوم، فهل يمكن لموجود ممكن الوجود أن يكون له شيءٌ من نفسه؟ أو أن يستطيع موجود (ممكن الوجود) مثله أن يعطيه شيئا ما؟ وعليه فإنّ الرحمة الرحمانيّة هي الشاملة للعالم بأسره. ثمّ إنّ الله الذي هو ربّ العالمين، وتربيته التي تشمل العالم، أوَليست تربيته مظهرا للرحمة؟ وهل يمكن أن تكون الرحمة والتربية شاملة للعالم دون اقترانها بالعناية والألطاف والمحبّة الإلهيّة؟ إذن، لِمَ لا يكون مَن شملته العنايات والألطاف والمحبّة الآلهيّة موضعا لمحبّتنا؟ وإذا لم يكن هو الأمر منّا، أليس هو نقص فينا؟ أليس هو ضيق أفق، وقصر نظر من قِبَلنا؟».[2]

الثاني: إنّ خدمة عباد الله هي وسيلة لخدمة الحقّ: «ما دُمنا عاجزين عن شكره وشكر نعمائه التي لا نهاية لها، فما أفضل لنا من أن لا نغفل عن خدمة عباده؟ فخدمتهم خدمة للحقّ - تعالى -، فالجميع منه. علينا أن لا نرى أنفسنا

---

[1]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٧٣.

[2]- وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص٢٨ - ٢٩.

أبدا دائنين لخلق الله عندما نَخدِمُهُم، بل هُم الذي يُمنُّون علينا حقّا، لكونهم وسيلة لخدمة الله - جلّ وعلا -. ولا تسعى لكسب السمعة والمحبوبيّة من خلال هذه الخدمة، فهذه بحدٍّ ذاتها من حبائل الشيطان التي يُوقعنا بها. واختر في خدمة عباد الله ما هو الأكثر نفعا لهم وليس ما هو الأنفع لك ولأصدقائك، فمثل هذا الاختبار هو علامةُ الإخلاص لله - جلّ وعلا -»[1].

وفي الحديث عن الوجه الاجتماعي للعبادة، نحن معنيّون بتأكيد مفهوم شمول العبادة كما جسّده الإمام الخميني(ره) في سيرته العمليّة ونهوضه الإصلاحي؛ ذلك المفهوم الذي يعني أنّ ممارسة الطقس الديني لا ينبغي أن يحول دون الاهتمامات الأخرى، سيما ما يرتبط منها بالشأن العام، وهنا يتمّ التأكيد على ربط الدين بالحياة، ذلك الربط الذي يظهر بوضوح في النماذج والتجلّيات الاجتماعيّة للعبادة.

فقد هدَفَ الإسلام في عباداته وشعائره إلى تعظيم المولى - سبحانه وتعالى -، ومع ذلك امتدّت هذه العبادات لتشمل قطاعات واسعة من النشاط الإنساني؛ فأسبغ الإسلام بتشريعه للجهاد، والزكاة، والخمس، والصيام، والوضوء، والغسل، طابع العبادة على النشاطات العسكريّة، والماليّة، والصحيّة، والغذائيّة وما إلى ذلك من نشاطات تطال مختلف جوانب الحياة. وميّزة هذا الشمول هو في استقطابه كافّة الأنشطة الاجتماعيّة، والسياسيّة، والفرديّة، وجذبها إلى محور واحد هو الله - تعالى -، وبذلك يتحوّل كل نشاط بشري إلى جهد عبادي يبذل في سبيله - تعالى -. وبهذا تتّسع دائرة العبادة لتطال مختلف جوانب النشاط البشري.

شمول العبادة في مسلكيّة الإمام(ره)

تقدّم في الفصل السابق أنّ الإمام(ره) اتّبع نظاما صارما في عباداته بحيث لم يكن يحيد عنه قيد أنملة، أو يشغله صارف عن القيام بواجباته

---

[1]- المصدر نفسه، (محضر الحق)، ص٨٨.

العباديّة، فكان بذلك مصداقا حيّا، وشاهدا ساطعا، لقوله - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[1]، وهو - مع ذلك - لم يكن متفرّغا للعبادة بالنحو الذي يدعوه للعزلة والانصراف عن متابعة الواجبات والشؤون العامّة. فعلى الرغم من اهتمام الإمام البالغ بالمسائل العباديّة والمعنويّة، والأهميّة القصوى التي كان يوليها للعبادة والتهذيب وتربية النفس، إلاّ أنّه سلك - مع ذلك - في عباداته ومعاملاته سلوكا بحيث أنّ ذكر الله - تعالى - لم يكن يشغله عن القيام بواجباته الاجتماعيّة، والسياسيّة، والحياتيّة، وحرص في سلوكه العبادي هذا على تجسيد مفهوم شمول العبادة تجسيدا حيّا، فالحياة كلها تشكّل مسرحا للعبادة ما دام الهدف منها هو رضا الله - تعالى -، وكل حركة من حركاته ولو لم تصطبغ بصبغة تعبديّة بحتة تتحوّل إلى عبادة طالما أنّها منطلقة من خلوص النيّة لله - تعالى - وابتغاء مرضاته - تعالى -.

وعليه، فإنّ اهتمام الإمام(ره) وعنايته بالأمور المعنويّة والتربية والأخلاق لم يكن بالأمر الذي يفرض عليه الانعزال جانبا، أو يدعو إلى «الانعزال في إحدى الزوايا، والانقطاع لتلاوة الذكر والوِرد، ونسيان كل شيء - كما يظن بعضهم من أنّ الاتّصال بالله، ودوام ذكره، لا يتمّ إلاّ عن طريق تلاوة الأوراد والأذكار والتسبيحات - لذا فقد كان الإمام يتبع نهجا آخر يختصّ به نفسه. والكثير من الذين عايشوا الإمام وكانوا على مقربة منه يقولون: إنّ الإمام دائم الذكر، وإنّ قلبه ينبض بذكر الله دائما، وبغاية الاطمئنان ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[2] حتّى ولو كانت يداه خاليتين من المسبحة، أو أنّ شفتيه لا تتحرّكان بالذكر إطلاقا. إنّه كان لا يسهو عن ذكر الله، فهو يلهج بالحمد والثناء والشكر لله الخالق الواحد الأحد، لذا؛ فإنّ ذكر الله - سبحانه وتعالى - وتمجيده ليس باستعمال المسبحة فقط، وبتحريك الشفاه بزمزمة وانفعال

---

[1] - سورة المنافقون، الآية ٩.

[2] - سورة الرعد، الآية ٢٨.

ورياء - بمثل ما ابتلي به بعض الناس -. بالرغم من انشغال الإمام بذكر الله، فإنّه يكره التظاهر بذلك، وهذه خصوصيّة أخرى امتاز سماحته بها.

ومن هذه السيرة نرى أنّه بالرغم من اهتمامه بالزيارة والعبادة والدعاء، فإنّه لم يكن ينسى الكثير من الأشياء الأخرى؛ فلم يتخلّ عن النهوض بمسؤوليّته في معالجة مشاكل الناس، ورفع المظالم عنهم، وتقديم الخدمات لهم. إنّه لم يدر بخلده يوما أنّه لو انشغل بالدعاء والزيارة، ينسى الكثير من الأشياء، ولا يحسّ بأيّة مسؤوليّة، ويحمّل الآخرين إنجاز أعماله الشخصيّة، فيلقي بأمور معيشته عبئا على عاتق الآخرين، يتصوّر نفسه أنّه من أهل الصلاح والتقوى؛ لأنّه يحمل المسبحة بيده، ويألف المشاهد المشرّفة والمساجد، معتكفا لا يهمّه إلاّ الذكر والورد والدعاء!»[1].

يقول الإمام(ره): «إنّ أولئك الذين بلغوا هذا المقام أو ما يماثله، لا يختارون العزلة عن الخلق أو الانزواء، فهم مأمورون بإرشاد وهداية الضالّين إلى هذه التجلّيات، وإن كانوا لم يُوفقوا كثيرا في ذلك.. إنّ خاتم النبيين الرسول الأكرم(ص) أُمِرَ بعد بلوغه القمّة من مرتبة الإنسانيّة بهداية الناس بعد أن خاطبة - تعالى -: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾**».[2] [3]

وعليه، يمكن أن نرى بوضوح - ومن خلال متابعة سلوك الإمام(ره) نفسه - أنّ براق العروج إلى الله - تعالى - لا ينحصر لديه بالإتيان بالأعمال التي يمكن أن تُصنّف في دائرة الصلاح وحسب، بل تتّسع دائرة العبادة هذه إلى كل عمل يقع في سبيل الله، بما في ذلك أمور المعاش والمأكل والمشرب. من هنا يرفض الإمام العبادة التي تدعو إلى الخمود والانزواء في زوايا الخمول، وتحول دون العمل والنشاط؛ إذ العبادة الحقّة لا بد من أن تكون شاملة، بحيث تدعو إلى الحركة والنشاط والنهوض بالمسؤوليّات الخاصّة والعامّة على أتمّ وجه:

---

[1]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٥٦.

[2]- سورة المدثر، الآية ١ - ٢.

[3]- وصايا عرفانية، (تجلّيات رحمانية)، مصدر سابق، ص١٧.

من الخصائص الأخرى التي امتاز بها(ره) هي نظرته الشاملة للإسلام، وارتباطه الوثيق به، ما ساعد على انتصار نهضته المباركة؛ فقد ظهرت إلى الوجود بعض التصوّرات والرؤى التي انحرفت بالحقائق الإسلاميّة، وأصبح كل فريق يرى الإسلام وتعاليمه من خلال تصوّراته وأفكاره، وإلى مدى وبعد محدودين.

فبعض يرى الإسلام مقتصرا على العبادة من صلاة وصيام يعبد الله بهما، وحرام عليه ترك عبادته، والدين يوجب عليه الإلمام بالمسائل الدينيّة من حلال، وحرام، وطهارة، ونجاسة، إلى غير ذلك من الأمور الأخرى التي يحسب أنّها هي الدين كلّه. بينما يرى آخرون أنّ الإسلام يعني السياسة، وأنّه يوجب محاربة الظلم والظالمين.

إنّ الدعوة إلى الفصل بين العبادات والمعاملات؛ باعتبار أنّ العبادات مجال العلاقة الطوليّة بين الخالق وعباده، وهي موكولة إلى ضمير الإنسان وعقيدته وحياته الخاصّة، بينما المعاملات مجال العلاقات البشريّة الأفقيّة، وهي موكولة أو يجب أن توكل إلى القوانين المدنيّة الوضعيّة، هذه الدعوة - الهادفة إلى تحوير القوانين الشرعيّة وتعديلها بما يتناسب والقوانين الوضعيّة - لم تنشأ نتيجة جهل أتباعها بحقيقة الربط الموجود بين العبادات والمعاملات، والذي على أساسه يدخل الدين في صلب الحياة، وإنّما هم يسعون بذلك عن سابق تصوّر وإصرار إلى تجفيف منابع التواصل بين الدين والحياة.

ولهذا يفترض أتباع هذه الدعوة أنّ أنصار الشريعة، وأنصار مبدأ «الإسلام دين ودولة» يريدون إسقاط العموديّ على الأفقيّ، أي يريدون تحويل هذا الدّين إلى إيديولوجيا شموليّة تقتّن كلّ مجالات الحياة من عبادة، وقانون، وسياسة، وأخلاق، وسلوك يومي، وهو افتراض يقوم على مسلّمة مسبقة تذهب إلى أنّ الفصل بين الدين ومختلف مجالات الحياة هو الموقف السليم.

وقد يمارس هؤلاء مختلف أنواع التجهيل والتضليل في سبيل الوصول إلى

مبتغاهم؛ فيرون أنّ الفصل بين العبادات والمعاملات هو الذي يساعدنا على جعل الدّين تجربة فرديّة مستبطنة وروحانيّة، وهذا سوف يحفّز على احترام المبادئ الأخلاقيّة السّامية، كاحترام الحياة، وحرمة الجسد الحيّ والجسد الميّت، والتكافل الاجتماعيّ، والرحمة، والرفق بالوالدين، وعدم حبّ المال والجاه حبّا جمّا. وهذه القواعد الأخلاقيّة العامّة هي - بنظرهم - غير الشريعة التي تفرض نظاما للمعاملات قائما على اللامساواة بين المرأة والرجل، والعبد والحرّ، والمؤمن وغير المؤمن، واللقيط والصريح النسب. ولذلك ينبغي الإنطلاق في هذا التصوّر من زاوية المبادئ الأخلاقيّة العامّة التي تجد ضمانتها - في زعمهم - في منظومة حقوق الإنسان[1].

وقد أعلن الإمام الخميني(ره) عن رفضه لمثل هذه الاتّجاهات التي تدعو إلى فصل الدين عن الحياة العامّة، أو تدعو للتمييز بين العبادة ومجالات الحياة الأخرى؛ ذلك أنّ حصر العبادة في النطاق الشخصي الضيّق ينمّ عن جهل متفاقم بحقيقة كلّ من الدين والحياة على السواء، لا فرق في ذلك بين مَن يصادر الدين لصالح الحياة أو يصادر الحياة لصالح الدين.

ومما يروى عن الذين يدعون باسم (الجبهة الوطنية) إبّان اعتقالهم في السجون، إنّهم كانوا لا يؤدّون الصلاة، وعندما ينصحهم الناصح بأداء هذه الفريضة، كانوا يقولون: دعونا نعمل في خدمة الوطن، فالله لا يريد منّا الصلاة، وأحسن صلاة لنا خدمة أوطاننا! وكان هؤلاء يدّعون إنّهم مسلمون. وفي مقابل ذلك ثمّة مجموعة أخرى من المسلمين يرون الإسلام في خدمة الشعب، ولا عبادة أفضل من خدمة الناس - بحسب زعمهم -.

والواقع، أنّ الإسلام قد احتوى فيما احتواه الصلاة، والسياسة، والعبادة، وخدمة الناس، وكذلك النضال، والجهاد، وبحث في جميع النواحي وعالجها. ولكنّنا نرى القليل منهم يفهم الإسلام محتوى ومعنى، ومن مختلف أوجهه

---

[1] انظر: حرّيّة عدم العبادة ليست اعتداء على العبادة (مقالة)، رجاء بن سلامة، مجلة جسور الثقافية، افتتاحية العدد باب الفكر الديني - العدد (٢٤) - الثالثة - شباط ٢٠٠٧.

وأبعاده. ومن هذا الوسط كان الإمام الخميني(ره) الذي امتاز بهذه الخصائص؛ فقد كان على علم ومعرفة بأدقّ تفاصيل الإسلام؛ إذ امتلك من الميّزات ما أهّله لبلوغ القِمّة في الأمور السياسيّة، في الوقت الذي لم يكن فيه غافلا عن المسائل العباديّة، بل كان يؤدّيها بمنتهى العمق والدقّة، ولم يكن اهتمامه بالمسائل المعنويّة والروحيّة يمنعه من الاهتمام بالمسائل الاجتماعيّة، والسياسيّة، والعلوم الإسلاميّة»[1].

وبمقتضى شمول العبادة هذا، فإنّ كل عمل يقوم به الإنسان في سبيل أن يُعبَد الله - تعالى - على الأرض سوف يصطبغ بالصبغة العباديّة، دون أن يلغي ذلك أولويّة العمل العبادي المرسوم من قبل المولى - سبحانه - على سائر الأعمال الأخرى، سيما إذا كانت هذا العمل مثل الصلاة. وبهذا المضمون يروى أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مشغولا بقتال الناكثين في حرب صفين، ولمّا حان وقت الصلاة، واستعدّ الإمام لها، تساءل أحدهم كيف يصلّي والحرب قائمة! فنبّهه الإمام عليه السلام إلى أنّ القتال إنّما هو لأجل الصلاة، وإذا كان الحال كذلك، فكيف نترك!؟.

إنّ هذا التميّز الشمولي في فهم الإمام(ره) للنشاط العبادي من شأنه أن ينأى بثنائيّة العبادة والاجتماع جانبا؛ فلا تطغى الشعائر والطقوس الدينيّة على الاهتمام بالشأن العام، ولا يطغى الاهتمام بالشأن العام على تلك الشعائر والطقوس. بل إنّ الاهتمام بالشأن العام وخدمة قضايا الناس حتّى في الأمور الصغيرة يغدو أمرا نابعا من صميم الشريعة، ومن ظاهرها فضلا عن روحها.

يقول السيّد حميد الروحاني: «حدّثني أحد العلماء أنّه تشرّف بزيارة الإمام الرضا عليه السلام مع الإمام وعدد من الأصدقاء، وأنّهم استأجروا بيتا في مدينة مشهد، وتقرّر - كما قال - : أن نخلد ساعتين إلى النوم، فإذا أفقنا ذهبنا معا لزيارة الإمام عليه السلام، وحين نعود نجلس لاحتساء الشاي في فناء البيت، فانطلقنا معا، فإذا بالإمام قد اختصر الزيارة عائدا إلى البيت، ولمّا عدنا رأينا الإمام

---

[1]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٥٧.

يصبّ لنا الشاي، وقد فرغ من كنس ... اء الدار وفرشها، فسألت الإمام: أتختصر الزيارة من أجل عمل الشاي لتقدّمه إلى الأصدقاء؟ فأجابه الإمام: لا أرى أنّ ثواب تهيئة الشاي أقلّ من ثواب الزيارة والدعاء.

لم يقل الإمام(ره) أنّ العبادة لا تعني شيئا سوى خدمة الناس، وعلى الناس أن يَدَعُوا الزيارة والدعاء والعبادة ويقوموا بخدمة الخلق. وإنّما قال: إنّ ثواب رش الماء، والتنظيم، وإعداد الشاي لرفقاء السفر، لا يقلّ ثوابا عن الدعاء والزيارة»[1].

إذاً، ليست القضيّة هي في أنّه أيّ من الأمرين - بصفتهما متغايرين - ينبغي إيلاؤه الأهميّة المطلقة على الآخر! وإنّما تصير خدمة الناس في نفسها عبادة يصحّ التقرّب بها إلى الله - تعالى -، وتغدو العبادات في نفسها مظهرا من مظاهر التكافل، والتضامن، والتراحم الإجتماعي بامتياز دون أن نرقى بالمجتمع إلى حد التقديس المطلق، أو نهمّش من خصوصيّة العبادة في مجالها الروحي والفردي. فنجد أنّ الإمام(ره) عندما وصله نبأ قرار النظام البعثي الفاشي في العراق إعدام نخبة رساليَّة مؤمنة، منهم المرحوم القبانجي والبصري ورفاقهما، ظلما وعدوانا، والشمس تنحدر نحو الغروب من ذلك اليوم، فاتته فضيلة صلاة المغرب ليستدعي قائم مقام النجف والمسؤولين الآخرين، للعمل على إنقاذ هذه النخبة المسلمة من هذه الجريمة المؤلمة[2].

إنّ هذا الرجل الذي بلغت به العبادة حدّ الذوبان في المعشوق، تفوته فضيلة صلاة المغرب آنذاك؛ ليسجل بذلك موقفا ضد جريمة مؤلمة، ويسعى بذلك الاعتراض لإنقاذ نخبة مسلمة، وهذا التصرّف يعكس عمق الوعي في الموقف الشرعي، وهل هذا إلاّ العبادة بعينها!.

وعليه، فمن الخطأ النظر إلى الدين على أنّه مجرّد شعائر وطقوس عباديّة فحسب لا ارتباط لها بالمجتمع، كما أنّه من الخطأ النظر إلى الدين على أنّه

---

[1] لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص٦٠.

[2] المصدر نفسه، ص٦١.

مجرّد وسيلة لإصلاح المجتمع، فلا نقيم وزنا للطقوس والشعائر العباديّة في نفسها. وإنّما يجري التأكيد هنا على عينيّة الموقف الذي ينأى عن جانبي الإفراط والتفريط، ذلك أنَّ «المصائب التي أصابت المجتمع الإسلاميَّ كانت من جرّاء الإفراط والتفريط، فبعضهم يعتقد أنّ العبادة لا تتجاوز القيام ببعض الشعائر والأدعية، ولم يدرك من الإسلام غير هذا. يقابل هؤلاء في الجانب الآخر أفراد لا يقيمون وزنا لهذه الأمور. ولا يخفى أنَّ الطرفين المذكورين كانا غير صحيحين، وأنّهما بعيدان عن خطٍّ الإسلام والإمام»[1].

وهنا فقط يتمّ توحيد الثنائيات دون الإجحاف بخصوصيّاتها، وهنا فقط تكون الوحدة في عين الكثرة. وإنّها ملاحظة جديرة بالاهتمام؛ فإنّ مفهوم شمول العبادة لا يلغي خصوصيّة الأداء في المجالات المختصّة، بل هو يؤكّد عليه ويدعمه.

ويعتبر سلوك الإمام خير شاهد ودليل على هذه الحقيقة، فإنّ «هذا الرجل التاريخي العجيب والنابغة، كان حين يبحث المسائل العلميّة يحقّق فيها بشكل واسع وكأنّه غارق في العلم ولا علاقة له بشيء غيره، وعندما كان يدور نقاش سياسي كان يبدي وجهة نظره من جميع الأبعاد وكأنّه قضى عمره في الأمور السياسيّة، وكان في عبادته عابدا من الدرجة الأولى، وهو يقف في المحراب ويناجي ربّه وكأنّه ترك الحياة كلّيا وشغل نفسه بالعبادة. والخلاصة، إنّه كان في كل مجال إنسانا كاملا»[2].

«إنّ هذا الشخص الذي يعطي الأهميّة كلها للأمور العباديّة والمعنويّة، يبرز أيضا في المسائل والقضايا السياسيّة، ويكون حاذقا كذلك في الأمور الاجتماعيّة والإداريّة؛ يتعامل معها ويتصرّف بحكمة بالغة وببعد نظر حادّ، ممّا لم نجد له ندّا إلاّ بين القلّة القليلة من أمثاله، لذا فقد كان رجل السياسة الماهر، العابد المتواضع، الذي سلك سبل العرفان، فعزف عن الدنيا

---

[1] المصدر نفسه، ص٦١.

[2] الإمام الخميني قدوة، المصدر نفسه، ص٧٢.

ومغرياتها»[1].

إنّ مفهوم شمول العبادة - كما نجده عند الإمام(ره) - لا يتنافى مع أن تكون العبادة في محلّها، وأن تكون السياسة في محلّها، وأن يكون النشاط العلمي في محلّه، وهكذا يكون العمل المناسب في مكانه المناسب. وإنّ طغيان بعض الاهتمامات على حساب اهتمامات أخرى، بحيث تتجاوز محلّها المناسب - حتّى ولو كانت هي العبادة المرسومة نفسها - هو أمر خاطئ جدّا، وقد كان الإمام(ره) في سلوكه في هذا المجال قدوة ومثالا يحتذى في أداء وظائفه الدينيّة وإيقاعها في مكانها المناسب مهما كانت الظروف والأحوال.

كانت رؤية الإمام تقضي أن يتعامل مع الإسلام بجميع أبعاده وجوانبه، ويضع العمل المناسب في مكانه المناسب؛ فالعبادة في محلها، والسياسة في محلها، وجميع المسائل الأخرى - الاجتماعيّة والأخلاقيّة والسياسيّة - لها مكانها المناسب. فإذا حانت الصلاة نسي كل شيء وتفرّغ للعبادة، بينما تراه سياسيّا بارعا في ميادين السياسة، وهكذا القضايا الاجتماعيّة والاخلاقيّة، فلم يكن عنده جانب يطغى على آخر.

من ذلك مثلا، في اليوم الذي قام فيه نظام الحكم في العراق بإلقاء القبض على نجله الأكبر العلامة الشهيد المرحوم الحاج مصطفى(ره) ونقله إلى بغداد، لم يتغيّر منهج الدراسة في حوزة الإمام، ولم يطرأ عليه أقلّ تغيير، بل إنّ الدرس كان أعمق وأوسع في مختلف المباحث العلميّة المطروحة آنذاك.

وفي أعقاب استشهاد المرحوم السيّد مصطفى بشكل غير متوقّع، والذي كان فقدانه مصيبة ما مثلها مصيبة على أصدقائه وأحبائه، وبالرغم من فداحة الخطب، بقي الإمام كالجبل لا تحركه العواصف ولا تهزّ كيانه الأحداث، وقد أذهل الآخرين حينما اعترض على تعطيلهم الدراسة بهذه المناسبة المؤلمة، وطلب إليهم عدم التعطيل. وهو لم يمنعه من أداء وظائفه ومسؤوليّاته

---

[1]- المصدر نفسه، ص٥٣.

أي حادث أو واقعة؛ فعندما يقوم بالتدريس لا يعير اهتماما لأيّ شيء سوى الدرس[1].

أمر آخر مهم لا بد من ذكره هنا، وهو دقّة الالتزام وحجم الاهتمام الذي يصدر عن الربّانيّين تجاه القضايا الشرعيّة، بحيث إنّ بعض الأمور التي يستصغرها الناس عموما فلا يولونها الاهتمام اللازم، بل يتساهلون إزاءها في تصرّفاتهم جريا وراء العادة، فيخرجون بذلك عن مراعاة الدقّة الشرعيّة فيها. مثل هذه الأمور تقع داخل اهتمام مَن ينظر بعين الله - تعالى - ولا يرى فرقا في مخالفته - تعالى - بين الأمر الصغير أو الكبير، فيزن حركاته وسلوكه وفق ميزان دقيق، ويراقب نفسه مراقبة حثيثة في كل ما يمكن أن يصدر عنها من تصرّفات. ومن خلال سيرة الإمام(ره) نلحظ هذا النحو من تقييد النفس بما يتناسب والشرع الحنيف، ففي أحد الأيّام عزم الإمام على الخروج لأداء صلاة الجماعة في النجف الأشرف، وعند باب غرفة الاستقبال كانت أحذية الناس قد تكدَّست بعضها فوق بعض، فلم يكن بُدّا من وطء تلك الأحذية بالأرجل، أمّا الإمام فقد توقّف برهة، وامتنع من أن يطأ الأحذية، بل أمر بجمعها وتنحيتها عن الطريق لكي يفسح المجال للسير وعدم الإضرار بها، مما يعني أنّ ذلك لا يخلو من إشكال وإضرار هو بمثابة التصرّف والإضرار بأموال الآخرين[2].

مثل هذه الأمور لا يولّيها الناس أهميّة كبرى، وإنّما يمنّون انفسهم بأنّ أصحاب الأحذية سيرضون ويتجاوزون عن وطئها. ولكنّ الإمام كان في موقفه هذا أدقّ وأعمق في التفكير؛ إذ كان يحسب للعقاب والجزاء يوم القيامة حسابه: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة خَيْرا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شرّا يَرَهُ﴾**[3].

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٠٠.

[2]- المصدر نفسه، ص١٠٢.

[3]- سورة الزلزلة، الآية ٧ - ٨.

العبادة والتزييف الاجتماعي

يتجاوز الطابع الاجتماعي للعبادة دور البِناء والترشيد إلى دور النقد، وهذا يدخلنا في الجانب المعرفي الذي يعتبر واحدا من أهم إسهامات العبادة، وهو جانب نقدي متعلّق بالسلوك العملي المزيّف والذي يختبئ في لباس الأعراف والعادات؛ ذلك أنّ الأوضاع الاجتماعيّة تحتّم على المرء الانسجام العام الذي ينبغي أن يكون عليه في تصرّفاته مع الآخرين، ونوعيّة هذه السلوكيّات تمليها الاعتبارات والأعراف العامّة التي درج عليها الناس في سلوكهم بصرف النظر عن منشأ هذه الاعتبارات. على أنّ هذا السلوك لا يتّسم بالواقعيّة دائما، فيدخل فيه أنواع المجاملات والتشريفات الخاصّة بالأشخاص بسبب ما لهم من مكانة اجتماعيّة ونحو ذلك من سلوكيات قد لا تحظى بالقبول بحجة أنها من خارج الشرع. وفي المقابل، قد لا تنسجم بعض السلوكيّات الاجتماعيّة مع مزاجنا الشخصي على الرغم من أنّها تحظى بالصفة الشرعيّة، وعلى سبيل المثال نجد أنّ الشرع يراعي في تشريعه موضوع الشأنيّة الشخصيّة بحيث يرجع تشخيص الاستطاعة في الحج مثلا إلى شأنيّة الأشخاص، وكذا في تحديد مهر المثل بالنسبة للزوجة والذي يتفاوت من زوجة إلى أخرى بحسب شأنيّة الزوجة الاجتماعيّة.

إنّ هذا الأمر يضعنا أمام التساؤل المعياري الذي ينبغي اعتماده في تشخيص ما لهذه الاعتبارات من واقعيّة أو زيف، وتحديد الميزان الذي من خلاله يتمّ تشخيص الموارد المشروعة وتمييزها عن الموارد الغير مشروعة، فهل الميزان هو السلوك العقلائي الذي يجري عليه العرف العام؟ أو أنّ المعيار هو العقل، أو الشرع، أو شيء آخر! وقد لا نملك أن نحسم النتيجة بشكل جازم في مثل هذه القضايا الاعتباريّة إلاّ بأن نسلك روحيًا - إن كنا أهلا لذلك - لنختبر ما يمكن أن نستشفه من وراء التجربة، أو نحاول تعقّب عيّنات من المواقف والسلوك النيّر الذي يتّسم بالمعياريّة إزاء الأوضاع الاجتماعيّة

السائدة لتحليل مرجعيّة تلك المواقف وإن بنحو كلي. ومهما يكن، لا ينبغي أن يدعونا ذلك إلى الالتباس أو يبعث على اليأس، إذ ليس النظر الإيماني في القضايا الاجتماعيّة بعيدا عن النظر العقلائي بالنحو الذي يدعو إلى الاغتراب عن الواقع.

في هذا المجال، سوف نسوق عيّنتين نتلمّس من خلالهما تجربة فريدة خاضها رجل شرّعت له الدنيا أبوابها، وجادت عليه بالشهرة والسلطة وإقبال الناس. ومع ذلك لم تستحوذ على قلبه أدنى استحواذ، وإنّما سلم مفاتيح القلب إلى بارئه، وأودع روحه لدى المحبوب الأزلي، ولم يحسب أدنى حساب لذاته، بل يمّم شطر النفس نحو المعبود الأوحد ولم يطلب وصالا إلاّ به وإليه، ولم يسمح للضغوط الخارجيّة الناشئة من اعتبارات المجتمع أن تؤثّر في قراره، كما لم يعبأ بالضغوط الداخليّة الصادرة من النفس؛ فلم يكن يتساهل مع متطلّبات النفس أو يبرّر لذلك بالاعتبارات الاجتماعيّة. وكان يتمتّع ببعد نظر وبصيرة ثاقبة تجعله لا يتردّد في اتّخاذ الموقف المناسب، مؤثرا للحق أينما وجده. وإنّنا لا نشكّ في أنّ تلك الروحيّة الصلبة التي تميّز بها الإمام(ره) إنّما هي ثمرة التعبّد في محراب العشق، وأنّ تلك المواقف الاجتماعيّة والعامّة التي اتّخذها في حياته إنّما هي من تجلّيات تلك الروح المؤمنة العابدة المتوكّلة في كل شؤونها على ربّها وخالقها لا غير، فليس للاعتبارات المزيّفة هنا أي أثر يذكر.

وفي ما يأتي، سنحاول تسليط الضوء على تلك الواقعيّة الصارمة في تعاطي الإمام(ره) مع التزييف الاجتماعي، من خلال عرض نموذجين من سلوك الإمام في السياق الاجتماعي، دون أن ننسى أنّ مرجعيّة ذلك السلوك تمتدّ في أفق الروح العابدة التي تجلّت في شخص الإمام، وفي الجذر الإيماني لتلك النفس المصقولة بجذوة العشق الأزلي.

النموذج الأول: خفق النعال

قرأنا كثيرا عن المحبّة المتبادلة بين الإمام(ره) والناس، ونِعْمَ ما قيل في ذلك من أنّ الفطرة الطاهرة البريئة التي يتمتّع بها كلّ أحرار العالم والمستضعفين فيه، حتّى غير المسلمين منهم، انجذبت نحو الجمال المعنوي الذي يتمتّع به الإمام الخميني، ونحو محبّته الإنسانيّة الصافية، وحريّة فكره وضميره، وصدق سيرته واستقامته. وأنّ المحبّة التي كان يكنّها الإمام لكلّ بني البشر كانت نابعة من بحر حبّه وخلوص ارتباطه بالله - عزّ وجلّ -، وهذه المحبّة لم تكن على مستوى واحد تجاه كل الأفراد والمجموعات؛ إذ إنّ مودّته كانت تشتدّ وتزداد تجاه الفئة المؤمنة بالله، الصادقة، والمخلصة، بشكل يتناسب مع التزايد المضطرد في صدق نيّتها واستقامتها وإيمانها. ومما لا شكّ فيه، أنّ قصة العشق المتبادل بين الأمّة والإمام، اللذان عاشا حالة الذوبان في حبّ الله والانتشاء بوصاله، هي التي جعلت الوحدة الروحيّة تربط بينهما في طريق خدمة ذات الحقّ.

وحين نتصفّح سيرة الإمام، وعلاقته بالناس من حوله، نلمس إصرارا منه (ره) وحرصا شديدا على أن يكون قريبا منهم. كيف لا! وهو يرى في الخلق تجلّيات جمال المعشوق الأوحد، ويرى خدمة الحق في ثوب خدمة الخلق، ولهذا كان يبدي الانزعاج الشديد حين يحيط به المحبّون لإبعاد الناس عنه، ويرفض أن يكون له أيّة خصوصيّة تميّزه عن الآخرين رغم موقعه المتقدّم ومكانته السامية، فكان (ره) لا يرضى أن يقوم أحد بدفع الناس عن طريقه، وكان يتواجد في الحرم المطهّر بالنجف الأشرف في غمرة من الازدحام الشديد، وقد بلغ الضغط لدرجة يصعب فيها على أمثاله من الشيوخ أن يشقّوا طريقهم دون أن يصيبهم من جرّاء ذلك أذى ومكروه، خاصّة وأنّ الكثير كانوا لا يبالون بتحرّكهم وسلوكهم، وغالبا ما كانوا يصطدمون به غير مبالين. مع ذلك كان الإمام سعيدا بتحمّل جميع الضغوط والمعاناة التي يلاقيها في المشاهد المشرّفة، ولا يتحمّل تطوّع الآخرين في دفع الناس والزائرين لفتح الطريق أمامه.

ولقد شاهد أحد السّادة الإمام يوما، في غمرة من الازدحام الشديد، في حرم أمير المؤمنينعليه السلام فتعلّقت عيناه بالإمام وهو بين أمواج من الكتل البشريّة، وخشي عليه من خطر الوقوع تحت أرجل الناس، فجاء إلى الرجلين اللذين كانا يسيران بمعيَّة الإمام، وأنكر عليهما عدم إزاحة الناس عنه، وقال لهما بحدَّة بالغة: أتنتظران من الإمام أن يفتح هو لكما الطريق ليسهّل عبوركما بين هذا الحشد الهائل من الناس؟! فقالا له: لا نجرؤ على مخالفة الإمام؛ لأنّه لا يرتضي لنا أن نكفّ الناس عن طريقه بأيّ حال من الأحوال. وغلب الغضب على هذا السيّد فخلع عباءته وكوّرها بين يديه وتقدّم بهمّة وعزيمة ليفتح الطريق من أمامه بالصلوات على محمّد وآل محمّد فما كان من الإمام إلاّ أن ربّت بيده على كتفه ومنعه من ذلك[1].

ونقل السيّد إملائي أنّه كان في يوم من الأيام في زيارة حرم سيّد الشهداء الحسينعليه السلام فشاهد الإمام الخميني(ره) في وسط موجة من الازدحام الشديد، وهو لا يستطيع أن يقدّم رجلا إلى الأمام، فما كان منه إلاّ أن أسرع ناحيته ليكفّ الناس عن طريقه، ولكن تغيّر ملامح الإمام دلّه على عدم رضاه عمّا قام به، ومع ذلك فقد واصل كفّ الناس عنه وفتح الطريق أمامه، وبغتة غيّر الإمام خطّ سيره ولم يسلك الطريق الذي هيَّأه له، بل حشر نفسه في غمرة الازدحام كرّة أخرى، ليسلك طريقا آخر يرتضيه هو لنفسه[2].

كان الإمام(ره) يحرص أن يظلّ قريبا من الناس، وكان يصرّ على هذا السلوك الذي يراه صحيحا سواء أكان ذلك يحظى بقبول الآخرين أم لا، فكان إذا ما حضر مجلسا عامّا، يجلس في أيّ مكان خال، وغالبا ما كان يجلس عند الباب حيث الناس المستضعفين والكسبة، خلافا لما كان عليه الآخرون الذين يستطيبون الجلوس على الكراسي، أو يختارون صدر المجلس حتّى ولو كانت أماكن اختيارهم تضيق بالجالسين، ممّا يسبّب أذى الآخرين[3].

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١١٥.

[2]- المصدر نفسه، ص١١٥.

[3]- المصدر نفسه، ص١١٣.

وكان ينفرد في تجواله وزياراته، بحيث أنّ الإمام أراد ذات يوم زيارة أحد العلماء في مدينة قم، ولكنّه كان لا يعرف عنوانه، فطلب من الشيخ صانعي أن يزوّده بالعنوان، ولقد أصرّ عليه الشيخ كي يرافقه ويرشده بنفسه إلى العنوان، ولكنّ الإمام رفض ولم يقبل بذلك[1].

ومهما يكن، فما يهمّنا التأكيد عليه هنا هو أنّه لم يكن حبّ الإمام(ره) للناس ناشئا من اعتبارات دنيويّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة، وإنّما كان يرى في خدمة الخلق ومجاورتهم نوعا من أنواع الخدمة لله - تعالى -؛ كان ذلك عبادة يتقرّب بها إلى الله - تعالى -، ولذلك نجده (ره) يبدي انزعاجا وصدّا في المواقع التي كان يتحلّق فيها الناس حوله لمجرّد مقامه الشخصي، فلم يكن يرى لنفسه أي مقام يدعو الناس للتجمهر حوله، وحينما عاد الحجّاج الإيرانيّون في سنة (١٩٦٩م) من أداء فريضة الحج لزيارة العتبات المقدّسة. شهدت مدرسة البروجردي في النجف الأشرف حضور جمع غفير من أولئك الزوّار في صلاة الجماعة التي كان يقيمها سماحة الإمام، وكانت الغالبيّة منهم ترغب في السير في ركاب الإمام حتّى إيصاله إلى مقرّ سكناه. بَيْدَ أنّ الإمام كان يأمر بتبليغ الحاضرين جميعا بأنّه ليس لأحد الحقُّ في أن يخرج معه من المدرسة مباشرة، فلذلك كان الزوّار يمكثون في أماكنهم حتّى إذا ما ابتعد الإمام عنهم تفرّقوا زرافات ووحدانا. كان الإمام يحذّر الزوّار الإيرانيّين من متابعته في سيره أينما سار، مع صعوبة حياة الوحدة وعدم وجود المساعد في مواجهة النظام العراقي الظالم الذي كان يسعى جاهدا لكي يجعل الإمام قابعا في زاوية ضيّقة من زوايا مدينة النجف منعزلا عن الناس. ولربّما كانت حركة الإيرانيّين في السير خلف الإمام تعدُّ أمرا ضروريّا ولازما له في تلك الظروف، ولكنّ الإمام - الذي كان توجّهه واتّصاله بخالقه العظيم لم يكن يرى غيره سندا يتوكّل عليه، ولم يكن يشعر مطلقا بأنّه وحيد وليس له معين - لم يكن

---

[1]- المصدر نفسه، ص١١٢.

محتاجا أبدا لتبيان ما لديه من القدرة من خلال تجمّع الزوّار حوله والسير وراءه أينما سار[1].

وما يكشف عن رفضه وتصدّيه بحزم لمثل هذه الإعتبارات الاجتماعيّة، وعدم انزلاقه نتيجة ذلك الزيف الاجتماعي في المطبّات التي يسقط فيها الكثير، ما يذكره أحدهم من أنّه قصد الإمام ليخبره بضرورة إصدار تأييد لتحرّك كان يطلق عليه آنذاك تحرّك العلماء المتنوّرين والمناضلين، وأنّ مَن لا يؤيّد هذه الحركة سوف ينفصل عن الناس ويعيش العزلة جرّاء موقفه هذا، فكان ردّ الإمام حازما وصارما في هذا المجال: إنّي إذا أعطيت رأيي في شيء يوما ما، وكان هذا الرأي سببا لابتعادي عن الناس في قرية نائية، أو في جبل لا يقطنه بشر، وأكون مجبورا للعيش فيه وحدي، فإنّي - مع كل ذلك - سأبقى أدافع عن وجهة نظري، وسوف لا أبالي بما يحدث لي بعد ذلك؛ لأنّها عقيدتي وفكرتي، وبموجبها اتّخذت هذا القرار، وليس مهمّا عندي أن يُقبَل رأيي، أو يؤدّي بي ذلك إلى العزلة أم لا.

كان إصرار سماحته نابعا من الفكر والعقيدة التي يحملها، وهو - بثاقب فكره ونظرته المتفتّحة والواقعيّة التي كان يمتاز بها - شخَّصَ الحالة بأنّها لا توجب حماية الحركة بهذا الشكل، خاصّة وأنّها لم تتوضّح هويّتها وأهدافها بعد. وكانت هذه الحركة المسلّحة - مجاهدي الشعب كما يُطلق عليهم - قد تلقّت، منذ أوائل سنيّ عمرها، التأييد والحماية من قبل الكثير من الشخصيّات الكبيرة في الأوساط العلمائيّة والسياسيّة والدينيّة في إيران. يقول آية الله المطهري بعد أن توضّحت الأمور للجميع: لقد انزلقنا جميعا ما عدا الإمام؛ لامتيازه عنّا بالنظرة الواقعيّة، والاعتماد على استنتاجه الفكري والعقائدي، بإصرار، في عدم تأييد القضايا والأشياء المبهمة، أو شبه المبهمة. ومن خلال تمسّكه بهذه الفكرة والعقيدة صان نفسه من الانزلاق، وقد توضحّت للملأ آثار هذه الحكمة بعد فترة من الزمن[2].

---

[1]- المصدر نفسه، ١١٤.

[2]- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٤٢.

لا شيء يفسّر هذه الرؤية الثاقبة والبصيرة النيّرة، وهذا الاطمئنان الكبير في توكّله على الله - تعالى - وحده، وهذه الإرادة الصلبة، سوى عمق الإيمان الذي تميّز به، وروح العبادة الحقّة التي طبع عليها. فلم يكن التهديد بالعزلة وانصراف الناس عنه ليثنيه عن متابعة الحقّ، أو يغيّر من قناعاته بحيث ينقاد للتيّار العام تحت مبرّر المصالح الآنيّة، بل كان يأنس بالوحدة حيث يكون مع الحق، ويستوحش من خفق النعال خلفه حيث لا يكون في ذلك رضا الله - تعالى -، مدفوعا في ذلك بثقة واطمئنان كبيرين بربّه، ولا ينصرف مع ذلك قيد أنملة عن بيان الموقف الصحيح للرأي العام، وإبداء التوجيه والنصيحة والإرشاد متى ما لزم. وهو الذي عاش بعيدا عن أمّته في سبيل طلب الحقّ، ومع ذلك لم يخفِ رغبته في التواجد بين أبناء أمّته ولو سقط بين الأقدام؛ فقد مضى على فراق الإمام للشعب الإيراني أكثر من خمسة عشر عاما، وكان أبناء الشعب في غاية الشوق والحنين لرؤية إمامهم وقائدهم. وكان من البديهي أنّ خبر وصول الإمام سوف يكون له صدى واسع بين أبناء الشعب الإيراني، وقد نظّمت لجنة الاستقبال استقبالا حافلا للإمام. يقول الشهيد المظلوم آية الله الدكتور البهشتي: «لقد قمنا بتنظيم برنامج لاستقبال الإمام، سنفرش المطار ونزيّنه بالمصابيح، وسنأخذه من المطار إلى روضة الزهراء بالهليكوبتر». وحين بلغ ذلك مسامع الإمام، رفع رأسه قائلا لأحد معاونيه: اذهب وقل لهؤلاء السادة: هل تريدون استقبال كورش في إيران؟! لا حاجة لهذه الأعمال أبدا، فإنّ أحد الطلبة كان قد خرج من إيران، وهو يعود إليها الآن. إنّي أريد أن أكون بين أبناء أمّتي ولو سقطت بين الأقدام[1].

ما قصدنا إليه من خلال الكلام الآنف، هو أنّه يوجد خيط رفيع بين الاعتبارات النفسيّة والاعتبارات الاجتماعيّة، خيط رفيع لا يدركه إلاّ مَن أُلهِم روح العبادة بحقّ، فتواضع نتيجة ذلك بكلّ كيانه للحقّ؛ وظهر أثر ذلك في سلوكه الربّاني الخارج عن سلطة الاعتبارات والأعراف الاجتماعيّة المزيّفة،

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص٢٩٥.

تلك الأعراف التي تكبّل النشاط المعنوي وتحول دون تكامله ونموه؛ ذلك أنّ الاعتبارات حين تتحوّل إلى تشريف للمقام الشخصي والاعتداد «بالأنا» تصبح مذمومة بنظر الشرع، ونادرا ما يستطيع المرء تجاوز الحبائل الوهميّة لهذه الاعتبارات، أو انتزاع فتيل الميول النفسانيّة السيّئة من ذاته.

النموذج الثاني: النقد والإساءة

يتداخل البعد الاجتماعي لدى الإمام مع البعد الفردي، ويتشابك الحديث عن المجتمع مع الحديث عن النفس، وهذه ميّزة في منهج الإمام؛ إذ لا يعود ثمّة إمكانيّة للتطرّق إلى الحياة الاجتماعيّة بمعزل عن الحياة الأخلاقيّة، وهذا يفسّر كيف أنّ سلامة المجتمع رهن بتهذيب نفوس أفراده.

وهذا لا ينبغي أن يدعونا إلى الخلط بين الأمرين في تعاملنا مع الآخرين، بأن نخلط بين ما هو شخصي وما هو حقّ عام، ونبادر إلى تصوير انتقادات الغير لنا على أنّها اتّهام وتجريح وتهجّم شخصي، فنسعى للانتصار لأنفسنا حتّى ولو كانت هذه الملاحظات تصبّ في خانة النقد البنّاء الذي هو حقّ عام. وينشأ ذلك عادة من ميل الإنسان إلى تقدير ذاته، وهو ميل غريزي يطلبه كل إنسان في دخيلته، والمشكلة تبدأ حين يطالب الإنسان الآخرين بتقدير ذاته على حساب الموقع الذي يحتلّه، وقد يبرّر ذلك بأنّ احترام الموقع يحتّم تقدير الذات من قبل الآخرين! فيغدو الموقع متجمّدا في إطار الذات. ولا ينجو من هذه الغائلة إلاّ من جاهد نفسه حقّ الجهاد، وأدرك أنّ النقد إنّما هو وسيلة اجتماعيّة تتيح التكامل في ما بين الأفراد في حال اعترف كل منهم بالنقص، وأنّ الكمال لله وحده، حينها لن يفسّر النقد على أنّه تشنيع شخصي، بل يكون فيه مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع.

على أنّه ثمّة خيط رفيع يفصل ما بين النقد والإساءة. وهذا الجانب له تأثير كبير في النفس، وقد تعرّض له الإمام في أكثر من مناسبة، وأوضح من خلال توجيهاته الأسلوب الصحيح في التعامل مع هذه الوضعيّة المتداخلة.

يقول الإمام(ره) في رسالة إلى ولده السيّد أحمد:

رغم أنّك لم تتصدّ لأيّة مسئوليّة ممّا تصدّى له القادة الإسلاميّون المسؤولون - أيّدهم الله تعالى - إلاّ أنّك تتعرّض للكثير من الصدمات، وما ذلك إلاّ لأنّك ابني، فبناء على فهم الغرب والشرق، ينبغي أن أصبح أنا وكلّ من هو قريب مني، خصوصا أنت لِمَا تمثّله من القرب الشديد مني، موضعا للتهمة والأذى والافتراء. فجريرتك الحقيقيّة هي أنّك ابني، وهذا ليس بالجرم القليل في نظرهم، ولا شكّ أنّهم سيعرّضونك لأشدّ من هذا، وعليك أن تستعدّ لتحمّل المزيد.. رجوتني مرّات عديدة أن لا أتحدّث عنك بما يدل على تبرئتك من التهم المنسوبة إليك، وقلت أنّ ذلك لأجل الإسلام ومصلحة الجمهوريّة الإسلاميّة، ولكن إذا رأيت في هذه الوريقات أنّني خالفت قولك هذا، وقلت عنك شيئا غير ما طلبت متي، فاعلم أنّ ذلك عمل بالتكليف الإلهي، والتصدّي للدفاع عن شخص مسلم، أو عن أحد عباد الله ممّن تحمّلوا في سبيلي كلّ هذه التهم والأذى، دون أن أقول أنا ما أعرف عنهم[١].

وفي موضع آخر يخاطب الإمام(ره) ولده بقوله:

على أحمد أن يعلم أنّ مَن كان مثله داخلا في هذه الأمور الاجتماعيّة أو السياسيّة، فلن يبقى مصونا عن الافتراء والضربات، وعليه أن يرتّب حسابه مع الله القادر المتعال، وأن يتّكل على ذاته المقدّسة، وأن لا يخشى البشر الضعفاء، فإنّ مكائد البشر مثلهم تنقضي بسرعة وتفنى، وسنرجع كلّنا إلى الله، والآن نحن في المحضر المبارك أيضا.

آمل أن يتّكل أحمد على الله - تبارك وتعالى -، وأن لا يخشى غيره أحدا، وأن لا يتزلزل أو يتردّد في خدمة الخالق والخلق بسبب التهم التي توجّه إليه، أو ما يلقاه من معارضة، وأن يرجو في ذلك رضا الله - تعالى - في ما يقدّمه من خدمات، وأن لا يخطو أيّة خطوة في طلب أي منصب.

تهيّأ بعدي لمواجهة مختلف مشاعر الجفاء والضغائن التي أكنّتها الصدور مني، فسوف تنعكس عليك، وإذا كان حسابك مع ربّك سليما، وتحصّنت بذكر

---

[١]- وصايا عرفانية، (نار الشوق)، مصدر سابق، ص١٠٢.

الله؛ فإنّك لن تخشى الخلق. فأمر الخلق وحسابهم هينٌ سريع الانقضاء، والأزلي هو الحساب أمام الحقّ - تعالى - [1].

في هذه التوجيهات يرى الإمام(ره) أنّ من واجبه الدفاع عن الحقّ ودفع التهم الباطلة، وهذه رسالة إلى أولئك الذين كانوا يكيلون التهم الباطلة بحقّ ولده السيّد أحمد. وفي الوقت نفسه، يلهم ولده الدرس الأخلاقي العظيم، فيدعوه إلى عدم التأثّر بتلك الشائعات، وأن ينظر إلى نفسه نظر التقصير، ويكون نظره منحصرا برضا الله - تعالى - لا غير.

ومن جهة أخرى، ينبّه الإمام إلى أمر آخر مهم، وهو ضرورة التمييز بدقّة بين النقد والإساءة، وعدم الانزلاق في سلك إبليس حين نخلط بينهما بدافع الاستجابة لهوى النفس، أو نجعل الأمر يختلط على الآخرين؛ لأنّنا بمجرّد أن نسمع انتقادا من الغير نترجمه مباشرة على أنّه تهجّم وإساءة إلى شخصنا الكريم، فرُبّ عيبٍ فينا أظهره صديق وليس عدو، فنسعى للتظلّم تحت عنوان المصلحة الدينيّة، وفي الواقع نفعل ذلك انتقاما لأنفسنا.

فقد كان السيّد أحمد يمثّل شأنا عاما، لهذا من الطبيعي أن يواجه انتقادات بنّاءة وغير بنّاءة تتعلّق بالشأن العام الذي هو ملك الجميع، وليس بشخصه الكريم. وليس من الطبيعي أن يتوقّع الاستماع إلى إطراء المدّاحين فحسب، فما أكثر الذين يصورون لنا أعمالنا على أنّها حقّ سيّما حين نكون في موقع متقدّم، تزلّفا أو طلبا للمصلحة الشخصيّة. وإنّه لمن وساوس الشيطان إلينا أن نفسّر النقد على أنه تهجّم شخصي، لكن الأمر يصعب تحمّله على مَن لم يجاهد نفسه حقّ الجهاد.

يقول (ره) في هذا الصدد في توجيه ربّاني لولده العزيز السيّد أحمد: يجب أن ننتبه إلى أنّ منشأ فرحنا بالمدح والثناء، واستيائنا من الانتقادات والشائعات هو حبّ النفس الذي هو أخطر شراك إبليس اللعين. نحن نميل أن يكون الآخرون مدّاحين لنا حتّى ولو صوّروا أفعالنا العاديّة وحسناتنا المتخيّلة

---

[1]- المصدر نفسه، (هدية غيبية)، ص٧٨.

أكبر من حجمها بمئات المرّات. ونحبّ أن تكون أبواب انتقادنا - ولو بحقّ - موصدة أو يتحوّل انتقادنا إلى مديح. ننزعج من الحديث عن معايبنا، لا لأنّها ليست حقّا، ونفرح بالمدح والثناء، لا لأنّه حقّ، بل لأنّه «عيبي أنا» و«مدحي أنا».

بني: ما أحسن أن تلقّن نفسك حقيقة واحدة، وهي أنّ مدح المدّاحين وإطراء المطرين غالبا ما يهلك الإنسان ويجعله بعيدا عن التهذيب وأشدَّ بعدا. التأثير السيّء للثناء الجميل في نفوسنا الملوّثة أساس تعاساتنا، والإلقاء بنا - نحن ضعفاء النفوس - بعيدا عن المحضر المقدس للحق - جل وعلا -.

ولعلّ الباحثين عن عيوبنا، والمروّجين للشائعات ضدنا، مفيدون لعلاج معايبنا النفسيّة - وهو كذلك - كالعمليّة الجراحيّة المؤلمة المفيدة للمريض. أولئك الذين يبعدوننا بمدائحهم عن جوار الحقّ أصدقاء يعبّرون عن عداوتهم بصورة صداقة. وأولئك الذين يظنّون أنّهم يعبّرون عن عداوتهم لنا بالذمّ والفحش واختلاق الشائعات هم أعداء يصلحوننا - إذا كنّا أهلا لذلك - إنّهم يعبّرون عن صداقتهم لنا بصورة عداوة.

أنا وأنت إذا اقتنعنا بهذه الحقيقة وتركنا الحيل الشيطانيّة والنفسيّة نرى الواقعيّات كما هي، عندها سنضطرب من مدح المدّاحين وثناء أهل الثناء، كما نضطرب اليوم من ذمّ الأعداء وشائعات المغرّضين. وسنتفاعل مع الذمّ ونتلقّاه كما نتفاعل اليوم مع المدائح والإطراءات ونتلقّاها.

إذا بلغ قلبك شيٌ مما ذكرت، فلن تزعجك بعد ذلك المنغّصات، ولن يؤلمك اختلاق المختلقين، وسوف تنال طمأنينة القلب، فإنّ أكثر الآلام والقلق إنّما هي نتيجة الأنانيّة[1].

وزبدة القول: إنّ مَن ربط قلبه بالحقّ، لن يستوحش في الطارئات من الصدوف، وإنّ مَن حرّره من الأغيار، استنقذ نفسه من الوقوع في الشرك الخفي والأخفى.

هذه التوجيهات الربّانيّة تؤكد على مطلبين مهمّين على صعيد العلاقات

---

[1]- المصدر نفسه، (بلسم الروح)، ص٦٢ - ٦٤.

الاجتماعيّة:

١ - إنّ إصلاح المجتمع والأمّة لا بدّ من أن يمرّ أوّلا بإصلاح النفس وترويضها وتواضعها للخلق. وفي هذا الصدد يستشهد الإمام(ره) في إحدى وصاياه بالمثال التالي: يُروى أنّ الله - تعالى - خاطب أحد أنبيائه، فطلب إليه أن يأتيه بمخلوق أسوأ منه، فقام النبيعليه‌السلام بعدها بسحب رفاة حمار قليلا، إلاّ أنّه ندم فتركها، فخوطب بالقول: لو أنّك أتيتني بتلك الجيفة، لكنت سقطت من مقامك.

ثم يقول (ره): وأني لا أعرف مدى صحّة الحديث، ولكن لعلّ الأمر بالنسبة لمقام الأولياء، يعدّ سقوطا حينما يرون الأفضليّة لأنفسهم على غيرهم، فتلك أنانيّة وغرور[1].

٢ - ضرورة الإنطلاق في بناء العلاقات العامة على أساس الدافع الإلهي، وإيجاد الروحيّة الطيبة التي ترى الجمال في كل شيء، فترى بياض الأسنان في الجيفة قبل أن ترى انعكاسها السلبي على النفس؛ فإنّ سجن النفس والأنانيّة يحول دون رؤية الجمال في الأشياء، ومن يقع في هذا الفخ سوف يسيء إلى النفس قبل أن يسيء إلى أي شيء آخر.

---

[1]- المصدر نفسه، (تجلّيات رحمانية)، ص٢٧.

الفصل الرابع

تجلّيات العبادة في نطاق السلوك السياسي للإمام (ره) (السياسة المعنويّة)

السياسة المعنويّة

ثمّة تساؤل يُطرح هنا حول مبرّر الخوض في مفهوم السياسة، وموضوعة الفصل بين الدين والسياسة، وما لهذه القضايا من علاقة بمادّة العبادة التي هي موضوع البحث؟.

إنّ أي إجابة يمكن أن تتّسم بالصفة الموضوعيّة، لا بدّ من أن تنطوي على نسق ما، يفسّر لنا كيفيّة انبثاق هذه الجزئيّة محلّ البحث عن بيئتها الأم: الرؤية الكليّة لنهج الإمام(ره).

ذلك أنّ مَن يقف على مقوّمات شخصيّة الإمام(ره) يجد أنّ المسارات الفلسفيّة والعرفانيّة والفقهيّة فيها تشكّل بأجمعها كلاً مترابطا، تقوم الفلسفة فيه بدور الإضاءة على الهدف، ويقوم الفقه بدور القوننة وضبط معالم الطريق، ويقوم العرفان بدور الدافعيّة والمحركيّة في ذلك الاتّجاه. وبالتالي، علينا أن نبحث عن الإجابة في ذلك الترابط الصميمي لنرى من خلاله كيف أنّ النهج الذي اتّبعه الإمام(ره) في سلوكه السياسي نابع - في جانب من أهم جوانب مكوّنات شخصيّته - من تكوينه العرفاني المعنوي، وبالتالي يتحتّم علينا أن لا نغفل ونحن نتلمّس منهج الإمام(ره) في السياسة، أنّ السياسة والإدارة بنظره لا ينفصلان عن الذوق العرفاني والمعنوي. وهذا الوجه تحديدا

هو الذي نعقد لأجله الكلام في هذا الفصل.

على أنّه ثمّة إشارة مهمّة في هذا المجال، تنمّ عن وجود حالة توازن وتوازٍ في المسارين المعنوي والسياسي في نهج الإمام(ره)، وأنّ المنهج المتّبع على صعيد الأخلاق وبناء النفس يتماهى والمنهج المعتمد على صعيد الأمّة وبناء المجتمع؛ إذ ثمّة خيط رفيع يقودنا إلى استشفاف وحدة المنهج المعتمد على كافّة الأصعدة الإنسانية؛ النفسيّة منها، والسياسيّة، والاجتماعيّة، والثقافيّة.

يقول سماحة السيّد حسن نصر الله(حفظه الله) في هذا الصدد: «هناك في موضوع النهضة إضافة مميّزة من الإمام بصفته عارفا شامخا؛ إذ إنّني أظنّ ولا أجزم أنّ الإمام طبّق وأجرى في حركته الجهاديّة والنهضويّة في مواجهة الشاه والاستكبار منهجه نفسه في السير والسلوك العرفاني إلى الله - تعالى - أو اقتبس منه الكثير، فنجد الإمام يدعو الشعب مثلا إلى اليقظة، والابتعاد عن الغفلة، والتفكّر بحالته، وبما فعله الشاه وأسياده في إيران، كأوّل شرط للنهوض. وهذه التعابير والمضامين نفسها يعتبرها الإمام في دروسه الأخلاقيّة أوّل شرط للسير باتّجاه الحقّ - تعالى - ومجاهدة النفس.

ثمّ يدعو الشعب إلى أن يتسلّح كشرط ثان بالعزم والإرادة، ويتّخذ قراره بحسم المعرفة، وهذا العزم يعتبره الإمام شرطا للسير إلى الله - تعالى - في جميع المراحل والمقامات على اختلافها، وهكذا أقول إنّي أظنّ، وهذه نقطة جديرة بالتأمّل»[1].

وحتّى على مستوى اللغة ومفرداتها، نجد أنّ الإمام يصوّر الصراع بين قوى النفس كما لو كان صراعا بين الجنود الرحمانيّة والجنود الشيطانيّة، جنود العقل والجهل، ويصوّر النفس وجوارحها بالمملكة وأقاليمها. إنّ هذا يثير إيحاءات ودلالات غنيّة ذات صلة، تقودنا إلى التساؤل عن مدى ارتباط الحقيقة الأخلاقيّة النفسيّة بالحقائق الاجتماعيّة والسياسيّة والإنسانيّة عموما.

---

[1]- مؤتمر الجهاد والنهضة في فكر الإمام الخميني على ضوء التحديات المعاصرة: كلمة السيّد حسن نصر الله (حفظه الله) بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٩٩م. ص٤٢.

ثمّة إضاءة في هذا الجانب، أوردتها السيّدة فاطمة طباطبائي في كلمة عن الإمام(ره)، تعرّضت فيها إلى ذلك التماسك والالتقاء بين البعد المعنوي الأخلاقي والبعد العملي السياسي، تقول: «إنّ إدخال السياسة المعنويّة في مجال السياسة يعتبر من جملة تنظيرات الإمام التي سمّيتها بالسياسة المعنويّة.. وفي هذه الرؤية يمضي العرفان قدما ليتخلّص في خطوة أولى من الأنانيّات والأهواء النفسيّة (التنزّه). ثمّ في خطوة ثانية يتحلّى بالصفات والكمالات الإلهيّة (التجمّل). ومن خلال هذا، يتّضح أنّ العرفان النظري والعملي في فكر الإمام لا يقبل التجزئة؛ إذ يتبنّى الإمام العمل القائم على الفكر والوعي، وكذا يتبنّى الفكر والوعي الذي يؤدّي للعمل والتطبيق، لذلك يوصي الإمام بطلب العلم ويرى من الضروري تطبيق ما يتعلّمه المرء طوال الحياة، ويصرّح أنّ السلوك العلمي ينبغي أن يكون مقدّمة للسلوك العملي.

وهكذا فإنّ ما كان يؤمن به الإمام من جهة نظريّة باعتباره رجل سياسة، وعالم دين، ومفكّرا، كان يتجسّد في أعماله وسلوكه. فقد كان يؤمن في الجانب النظري بحقيقة (ألاّ مؤثر في الوجود إلاّ الله)، و(لا حول ولا قوّة إلاّ بالله). وقد تجلّت هذه المعرفة الراسخة في حياته بحيث إنّه لم يكن يخشى أيّ قوّة، ولذلك كان يوصي أتباعه أن لا يتّكلوا إلاّ على القادر الأزلي»[1].

وقد تلمّسنا في مطلع الكتاب جذر المنهج العرفاني الذي كان له تأثير واضح في تكوين شخصيّة الإمام(ره)، وهذا المنهج هو ما يؤسّس لنهج الإمام(ره) السلوكي في المجالات المختلفة العامّة؛ فقد أحكم الإمام(ره) ذلك الربط في سلوكه بين الأبعاد الروحيّة والفكريّة من جهة، والبعد العملي المتمثّل - في أحد أهمّ تجلّياته - بالنهج السياسي من جهة أخرى.

وهذا المعطى يقودنا إلى مشارف الحقيقة التالية: وهي أنّ السلوك العلمي في حياة الإمام(ره) ما هو إلاّ مقدّمة للسلوك العملي؛ وأنّ المسالك العلميّة

---

[1] السيدة فاطمة طباطبائي، محاضرة بعنوان: الحداثة والتجدد في فكر الإمام الخميني، موقع: دار الولاية للثقافة والإعلام على الانترنيت، تاريخ الدخول الى الموقع ٥-٧-٢٠٠٧.

المتشعبة لا تتوفّر على شرط الإنتاجيّة والجدوائيّة ما لم تتجسّد في شكل سلوك وعمل. وأكثر من ذلك، يعتبر الإمام أنّ «كلّ العلوم عمليّة، وهو بالتالي لم يفصل بين العلوم، بل رفض كلّ الثنائيات وصولا إلى توحيد الوجود»[1].

وكما أنّ لهذا الربط خلفيّته الفكريّة والثقافيّة، كذلك له نتائجه على مستوى الرؤية والهدف؛ فهو يقوم على الإيمان بأنّ العبادات في الإسلام كلّها سياسة، وأنّ السلوك السياسي ما هو إلاّ ترجمة دقيقة للسلوك العرفاني في نطاق الشأن العام. وعلى هذا، فإن قضيّة الفصل بين الديني والسياسي لن تعدو أن تكون حلقة من حلقات ذلك الصراع القديم المتجدّد بين النزعتين الماديّة والإلهيّة، صراع القيم الحضاريّة، وحين يتحوّل «أسلوب الخداع» الذي يتسالم الكلّ على ذمّه (دينيّا) إلى أسلوب ذكي ومطلوب في السياسة (دنيويا)، ندرك حينئذ خطورة التقنين التاريخي في بناء المفهوم وترسيخه في الأذهان، ذلك المفهوم المكيافلّي الذي يبرّر للوسيلة بالغاية، وتاليا، يدفع بقوّة إلى إقصاء مسحة الدين الحنيفيّة عن كافّة جوانب الحياة.

من هذا المنطلق، أعلن الإمام(ره) عن رفضه القاطع لممارسة الخداع السياسي، والذي جاء على لسان أحد أتباع السلطة بصورة النصيحة للإمام(ره): أيّها السيّد إنّ السياسة كذب وخداع وغش ونفاق. فدعوا ذلك لنا نحن. فأجابه الإمام(ره): نحن منذ البداية لم نتدخّل في هذه السياسة التي تتكلّم عنها.

فيرى الإمام(ره) أنّ للسياسة - الشائعة في البلدان - صورة ناقصة عن السياسة التي أثبتها الإسلام للأنبياء والأولياء. فالأنبياء والأولياء سعوا لهداية الأمّة، أرادوا أن يسلكوا طريقا يستوعب المنافع المتصوّرة للإنسان والمجتمع كافة. فالسياسة تعني توجيه المجتمع وهدايته، وأن يؤخذ بيده لما فيه خيره ومنافعه، وأن ينظر فيها إلى أبعاد الإنسان والمجتمع كافة، وأن توجّه الوجهة

---

[1] جلال الدين الاشتياني ومحمد صادق فضل الله، مقدمتان على شرح مصباح الهداية، سلسلة المعارف الفكرية بإشراف المعهد الإسلامي للمعارف الحكمية، ط١، ٢٠٠١، ص١٠، هامش١.

التي فيها صلاح الأمّة والأفراد. ومثل هذا منحصر بالأنبياء وحدهم، وليس بإمكان الآخرين أن يحقّقوا ذلك.

وهذا المفهوم الإسلامي يصطدم مع المفهوم الغربي، والذي ينظر إلى السياسة على أنّها علم القدرة، والتسلّط، وحمل الأفراد على الطاعة. وهو معنى يلتقي مع السياسات الشيطانيّة التي يلازمها الخداع والتحايل ونحوها من مفردات. وفي المقابل تهدف السياسة المعنويّة التي دعا إليها الإمام(ره) إلى قيادة الإنسان نحو صلاحه وكماله المنشود في مختلف شؤونه الدنيويّة والأخرويّة؛ وبهذا تلتقي السياسة في أهدافها وغاياتها مع الدين في كلّ مترابط لا يتجزأ؛ إنّ السياسة في الإسلام لا تنفصل عن الأخلاق، فلا قيمة لأيّة حركة ثقافيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو سياسيّة لا تحمل مضمونا روحيّا أخلاقيّا.

والسياسة ليست مجرّد إدارة لشؤون الحياة والجماعة والدولة وحراسة لها، وإنّما هي بالدرجة الأولى «تربية وتغيير وتكامل» [1]. والفارق كبير بين أن تكون هاديا ومربّيا، وبين أن تكون إداريّا وحارسا؛ ففي المدلول الأوّل ثمّة رساليّة تبدأ من «تحت»، بينما في المدلول الثاني سلطة واقتياد وسيطرة تبدأ من «فوق»[2].

وتتميّز «السياسة المعنويّة» عن سائر السياسات المتداولة بالاستقامة والأخلاقيّة والروحيّة. ووفق هذه السياسة تمتزج الأخلاق والروحانيّة بالعمل والسلوك، وتتحوّل الدولة إلى وسيلة وطريق معبّدة وبراق عروج يقود البشريّة إلى العبوديّة الجماعيّة لله الواحد القهار، حيث سعادتها واستقرارها. وهكذا تغدو السياسة في العالم الأدنى مظهرا من مظاهر الحقائق العرفانيّة في العالم الأعلى.

يرى الإمام(ره) أنّ الحكومة والدولة والبنى الاجتماعيّة والسياسيّة لا قيمة

---

[1]- علي شريعتي، الأمة والإمامة، ترجمة وتحقيق: حسين علي شعيب، ط١، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ٢٠٠٦م. ص٣٨.

[2]- المصدر نفسه، ص٣٨.

لها في نفسها ما لم تتحوّل إلى وسائل للتربية والتكامل والتغيير نحو الأفضل، يقول(ره): «السبب في أنّ الأنبياء أرادوا تحقيق الحكومة العادلة في الدنيا هو أنّ هذه الحكومة العادلة - ذات الأهداف الإلهيّة والأخلاق والقيم المعنويّة - يمكنها فيما لو تحقّقت أن تكبح جماح المجتمع، وتصلحه إلى حدّ كبير. طالما كانت الحكومات بيد الجبابرة والمنحرفين، وبيد الذين يرون القيم في آمالهم النفسيّة، ويعتبرون أنّ القيم الإنسانيّة تكمن في التسلّط وفي الشهوات، فإنّ الإنسانيّة ستسير نحو الانحطاط. لو تحقّقت آمال الأنبياء في دولة معينة - ولو بعضها - فإنّ تلك الدولة ستسير نحو الإصلاح»[1].

فلسفة السياسة المعنويّة

تبتنى السياسة المعنويّة في الإسلام على محوريّة التوحيد في النظرة إلى الكون والإنسان، وهو الأصل الذي تنبثق منه كافّة الرؤى، ولهذا يرتبط رفض الإمام(ره) للفصل المزعوم بين الشأن الديني والشأن السياسي بالفهم الدقيق للمفهوم التوحيدي في الإسلام، وهو يصرح بدحض مقولة الفصل في أكثر من موضع في كتبه ومؤلفاته وخطاباته، ويتعرّض لها حتّى في رسائله العرفانيّة، فيقول في إحدى رسائله:

«سيرة الأنبياء العظام(ص) والأئمة الأطهار عليهم السلام الذين هم صفوة العارفين بالله، والمتحرّرين من كل قيد وغلّ، والمتعلّقين بالساحة الإلهيّة، هي القيام بكل قوّة ضد الحكومات الطاغوتيّة فراعنة الزمان. وقد تجرّعوا كؤوس الآلام من أجل إجراء العدالة في العالم، وبذلوا الجهود التي تلقّننا الدروس. وإذا كانت لنا عين بصيرة وأذن سميعة فسنجد فيها ما يفتح أمامنا الطريق: من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين، فليس بمسلم»[2][3].

---

[1]- التربية والمجتمع «مظاهر عينية من فكر الإمام الخميني(ره)»، إعداد مركز الإمام الخميني الثقافي، ط١، بيروت، ٢٠٠١م. ص٧٥.

[2]- جامع أحاديث الشيعة، مصدر سابق، ج١٦، ص١٧٢. وأيضا: أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الاهتمام بأمور المسلمين، حديث ٤،١، باختلاف يسير.

[3]- وصايا عرفانية، (بلسم الروح)، مصدر سابق، ص٥٣.

والملاحظ في هذا النص تركيز الإمام في رفضه لمقولة الفصل على السيرة الروحيّة لهؤلاء العظماء: «الذين هم صفوة العارفين بالله، والمتحرّرين من كل قيد وغلّ، والمتعلّقين بالساحة الإلهيّة». وفي ذلك إشارة واضحة إلى المرتكز الأساس في الفهم الصحيح لمقاصد الدين الإسلامي على كافّة المستويات بما فيها المستوى السياسي والشأن العام، وهو التوحيد في أدقّ معانيه وأعمقها دلالة.

إنّ مقاربة هذا المنحى التوحيدي يتمّ على أكثر من صعيد، وسوف نختار المقاربة التي تنسجم مع منهج العرفان النظري، وهو المجال الذي استعرض فيه الإمام الخميني(ره) فكرته عن الأسفار الأربعة، وتحديدا في كتابه «مصباح الهداية».

وحيث إنّ غرضنا من هذه الأسفار يتعلّق بالحديث عن الأسفار الثلاثة الأولى فقط، سوف نقتصر على المقدار المطلوب دون الخوض في شرح هذه الأسفار إلاّ بمقدار الحاجة.

ففي السفر الأوّل المسمّى بالسفر من الخلق إلى الحقّ، يتجاوز السالك عالم الكثرة إلى عالم الوحدة. ويقصد بالوحدة وحدة الشهود لا وحدة الوجود. ووحدة الشهود هي أن تغلب على السالك أحكام الوحدة؛ فالملك لله الواحد القهار، وليس في الوجود مشهوداً غيره - تعالى -.

وفي السفر الثاني المسمّى بالسفر في الحقّ (بالحقّ)، يتخلّق السالك بأخلاق الله، ويتحقّق بأسمائه حتّى يحصل له التمكّن. فهذا السفر هو سفر من اسم مقيّد إلى اسم مطلق، حتّى يقف السالك على حقائق عالم الأسماء والصفات. والحقّ هنا هو الأسماء الإلهيّة، وإلاّ فلا سبيل للسالك إلى الذات الإلهيّة.

في السفر الثالث المسمّى بالسفر من الحقّ إلى الخلق (بالحقّ)، يعود السالك إلى عالم الكثرة التي كان قد ذهل عنها بعد أن استغرق في شهود الوحدة. ويعبّر أهل المعرفة عن هذا بالصحو بعد المحو، وبالبقاء بعد الفناء.

ويقف السالك هنا على حقائق عالم الإنسان، ويدرك حقائق الأشياء والأفعال، وحقيقة كل شيء هي عين الربط بالله- سبحانه -.

نلاحظ في السفر الأوّل عزوف عن الكثرة، بينما في السفر الثالث رجوع إلى الكثرة، يتخلّلهما استغراق في عالم الوحدة. ولا بدّ من ملاحظة أنّ الكثرة في السفر الثالث غير الكثرة في السفر الأوّل؛ إذ الكثرة في السفر الأوّل تغيّب الوحدة وتحجبها، بينما هي في السفر الثالث لا تحجب عن الوحدة وإنّما تنسجم معها على قاعدة: ما رأيت شيئًا إلاّ ورأيت الله معه وقبله وبعده وفيه.

ولعلّ هذا يلقي الضوء بصورة أوضح على اختلاف النظرة في الموقف من تدخّل العارف الربّاني في الشأن العام، سواء في ذلك الشأن الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي.

فالعارف الذي يختار العزلة ويجتنب التدخّل في الشأن العام، يرى أنّ ذلك من الصوارف التي تحول دون عمليّة السلوك. وهذا السلوك منه ينسجم مع السلوك في السفر الأوّل حيث تكون الكثرة حاجبة للوحدة، وتكون كل همّة السالك في العزوف عن الكثرة.

أما العارف الذي يرفض العزلة ويرى أنّ التدخّل في الشأن العام من صميم الدين، فإنّ سلوكه هذا ينسجم مع السلوك في السفر الثالث، إذ لا تكون الكثرة حاجبة للوحدة كي يجتنبها، وإنّما تكون الكثرة من مظاهر الوحدة التي تكشف له عن جمال الله وجلاله.

وحيث إنّ السالك في السفر الثالث لا يرى فرقا بين الكثرة والوحدة، بل يرى بينهما تمام الالتئام والانسجام، لذلك هو يرفض الفصل بينهما، بل لا يرى بينهما أيّة ثنائيّة أصلا.

فكما يتوجّه إلى الله - تعالى - من خلال الأعمال العباديّة الفرديّة، فهو يتوجّه إليه - تعالى - أيضا من خلال الأعمال الاجتماعيّة والسياسيّة بنفس المستوى إن لم يكن بمستوى أرقى وأسمى. ولذلك فهو يوحّد بين المسارات المختلفة ظاهريًا في سيره وسلوكه إلى الله - تعالى -. ويرى في خدمة الخلق

خدمة المولى - سبحانه وتعالى -، وكلّما اتّسعت دائرة الخدمة هذه كلّما كان عمله أقرب إلى القبول والرضا الإلهي.

وتتجلّى دلالة التوحيد في جانبها العملي في عنصر العبوديّة لله، تلك العبوديّة التي تشكّل حجر الزاوية في نظام تفكير الإمام(ره) وبناء تصوّراته ونظرته وسلوكه وتعامله مع نفسه ومع الغير. وهو الذي جسّد في سلوكه معاني التسليم والسجود والخضوع لله وحقيقة العبوديّة الجارية على كل مخلوقات الله - تعالى -، فالكلّ يسلّم لأمره ويخشع له ويسجد لجبروته وكبريائه، ويتّجه بفطرته وتكوينه بحسب مشيئة الله وإرادته، لا يشذّ عن هذه الحقيقة مخلوق سواء في عالم المادّة والجماد أو في عالم الروح والأحياء. وفي نطاق العبوديّة لن نجد تمييزا بين سلوك فردي أو سلوك اجتماعي أو سلوك سياسي، بل تتّحد المسالك كلّها في هدف واحد وتوجّه واحد هو أن يكون الأمر كلّه لله - تعالى - لا غير.

وإذا كان الأنبياء قد أقاموا الحكومات وتعرّضوا للشأن العام بدافع بسط العدالة الاجتماعيّة، فما ذلك إلاّ لأنّ هذا الدافع يتّصف بالصبغة الإلهيّة بحيث يصدر عن جنبة الإخلاص لله - تعالى - في النيّة، والتجرّد عن الهوى والنوازع المشتتّة، واتّباع ما تمليه المصلحة العامّة على مستوى حياة الإنسان الدنيويّة ومصيره الأخروي.

هكذا ينعكس الجانب الروحي - كما نجده في سلوك الإمام إزاء الشأن العام - على واقع الحياة كلّها؛ فلا ينسحب الجانب الروحي إلى إطار من العزلة الضيّقة في الممارسة بعيدا عن المشاركة في الشأن العام، كما لا تطغى معياريّة المشاركة في الشأن العام على الجانب الروحي وتختزله ضمنها، بل إنّ المعيار في كليهما مآله واحد؛ وهو الدافع الإلهي الذي هو المرتكز في ميزان الأعمال:

«لا الاعتزال الصوفي دليل الارتباط بالحقّ، ولا الدخول في المجتمع وتشكيل الحكومة شاهد الانفصال عن الحقّ، الميزان في الأعمال هو

دوافعها»[1].

وطالما أنّ الميزان في السلوك هو الدافع، فلن يعود ثمّة فرق بين أن يكون السلوك فرديًا أو عامًا:

«فكثيرا ما يكون العابد والزاهد مبتلى بشَرَك إبليس وهو يوسّع ذلك الشَّرَك بما يناسبه من الأنانيّة والغرور والعجب والتكبر وتحقير خلق الله والشرك الخفي وأمثال ذلك مما يبعده عن الحقّ ويؤدّي به إلى الشّرك. وكثيرا ما يكون المتصدّي لشؤون الحكومة ذا دافع إلهي فيحظى بمعدن قرب الحقّ كداود النبي عليه السلام وسليمان النبي عليه السلام. وأعلى منهما وأسمى كالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وخليفته بالحق علي بن أبي طالب عليه السلام، وكحضرة المهدي - أرواحنا لمقدمه الفداء - في عصر حكومته العالميّة».[2]

من هنا يختلف العمل باختلاف قوّة الدافع وفاعليّته: «ميزان العرفان والحرمان هو الدافع؛ كلّما كانت الدوافع أقرب إلى نور الفطرة، وأكثر تحرّرا من الحجب حتّى حجب النور، تكون أكثر ارتباطا بمبدأ النور إلى حيث يصبح الكلام عن الارتباط كفرا»[3].

وإنّه لمن اللافت أن يركّز الإمام وبشكل واضح إلى أهميّة المشاركة في الأمور السياسيّة وخدمة الخلق في ضمن وصاياه العرفانيّة، وليس فقط في كتاباته الفقهيّة أو خطاباته العامّة. فيقول في وصيّته العرفانيّة لابنه السيّد أحمد: «إنّ المشاركة في أمور السياسة السليمة والاجتماع، هي تكليف في هذه الحكومة الإسلاميّة»[4].

بهذه الروحيّة سعى الإمام(ره) إلى بناء الروح الاجتماعيّة التي تمّد جسور التواصل الإنساني في المجتمع، ولا ترى لنفسها أفضليّة أو تميّزا على خلق الله.

---

[1]- وصايا عرفانية، (بلسم الروح)، مصدر سابق، ص٥٤.

[2]- المصدر نفسه، ص٥٤.

[3]- المصدر نفسه، ص٥٤.

[4]- المصدر نفسه، (تجلّيات رحمانية)، ص٤٠.

وهي الروح التي تسعى لخدمة البشريّة والتخفيف من معاناتها ولا تنحبس في إطار الذات، بل تتفاعل إيجابا مع المحيط، وتعيش هاجس الانفتاح البنّاء على الآخر:

«لا تلقِ عن كاهلك حمل المسؤوليّة الإنسانيّة التي هي خدمة الحقّ في صورة خدمة الخلق؛ فإنّ جولات الشيطان وصولاته في هذا الميدان ليست بأقلّ من جولاته وصولاته بين المسؤولين والمتصدّين للأمور (العامّة). ولا تتعب نفسك للحصول على مقام مهما كان - سواء المقام المعنوي أم المادي - متذرعا بأني أريد أن أقترب من المعارف الإلهيّة أكثر، أو أنّي أريد أن أخدم عباد الله، فإنّ التوجّه إلى ذلك من الشيطان. فضلا عن بذل الجهد للحصول عليه. الميزان في أوّل السير هو القيام لله، إنّ في الأعمال الشخصيّة والفرديّة أو في النشاطات الاجتماعيّة»[1].

يقول السيّد القائد الخامنئي(حفظه الله): «من وجهة نظر الإمام فإنّ السياسة والعرفان والقوّة والأخلاق متداخلة في بعضها البعض، وهذه المعايير كانت وما زالت في مقابل السياسة الغربيّة المبنيّة على فرضيّة فصل الدين عن السياسة، والقوّة عن الأخلاق والمعنويات. إنّ الإمام كان يعتبر العمل بالواجب الإلهي رمز السعادة، ومن هذا المنطلق لم يكن يائسا أو متردّدا طيلة حياته بل كان يثابر من أجل الوصول للنجاح على كافّة الصعد»[2].

وعلى أساس هذا الدافع الإلهي ينبغي أن نعي الأساس والمرتكز الذي تنهض عليه رؤية الإمام(ره) الشاملة لكل مرافق الحياة بما فيها الشأن السياسي العام، وهي رؤية لا تقتصر على العقل في جانبيه النظري والعملي، القانوني والإجرائي، وإنّما تمتد إلى عالم الروح والقلب الذي ينبض بالحبّ والرحمة لكافّة المخلوقات؛ كونها مجبولة بيد العشق الأزلي، وكل موجود مرحوم:

---

[1]- المصدر نفسه، (بلسم الروح)، ص٥٥.

[2]- من خطاب القائد الخامنئي بمناسبة ذكرى رحيل الإمام الخميني(ره)، الموقع: (www.al-imam.org)، الخطابات والنداءات، تاريخ الخطاب ٢٠٠٤٦٣م. تاريخ الدخول إلى الموقع ٥ / ٧ / ٢٠٠٧.

«فقد اختطّ الإمام لنفسه طريقا يلازم صراط الدين المستقيم، وعبادة الحقّ، ونبذ الذات، للوصول إلى أنوار الله العلي القدير. لقد هجر سماحته سجن النفس المظلم وقفص الطبيعة الضيّق، باتّجاه الله ورسوله. وعمل على تهذيب نفسه، حتّى بات قلبه يبصر بنور الإيمان ويعشق الخالق - عزّ وجلّ -، وأفرغ قلبه من الذات وكل ما يتعلّق بها، وأوكل شؤون البيت إلى صاحب البيت. وبذل ما في وسعه وجاهد نفسه للوصول إلى ذلك المقام المعنوي الرفيع، حيث باتت كل حركاته وسكناته، كلماته وسكوته، لحظات نشوته ولحظات تألمّه، محبّته وكراهيّته، وبالتالي حياته وموته، من أجل الله وفي اتّجاه الله - عزّ وجلّ-.

إنّ العاطفة والمحبّة هي في الأساس إحساسات غرائزيّة تنشأ من الذات وتصبّ في الذات. إلاّ أنّه إذا أخذنا السير التكاملي الذي يؤدّي بالإنسان إلى الله - عزّ وجلّ - بعين الاعتبار، عندها تكتسب ظاهرتي العاطفة والمحبّة، شكل صفة مكتسبة متعالية. صفة تنبع من الذات الإلهيّة، وتسير في الخطّ الذي ينتهي إليه - سبحانه وتعالى -.

عندما تلتصق المحبّة الحقيقة - التي هي إحدى تجلّيات الانجذاب إلى الكمال والجمال - بالمركز الأساسي وبمبدأ الجمال والكمال، تصل إلى أقصى درجات سموّها وأبهى قلل شمولها، أي إلى درجة: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًا لِّلَّهِ﴾**[1]، وهكذا تشمل آفاق هذه المحبّة العالم بأسره والمخلوقات على تنوّعها.

لقد نظر الإمام بعين المحبّة والرحمة والألفة إلى كل ظواهر هذا العالم ومخلوقاته وخاصّة الإنسان، على أساس أنّها آيات وتجلّيات وإيحاءات من الله المحبوب الرحيم. وذلك انطلاقا من النظرة التي أشرنا إليها للتو، خلافا لدعايات العالم المستكبر، المغرّضة، التي أرادت بوحي من أغراضها الشيطانيّة وطبيعتها العدوانيّة، أن تصوّره على أنّه إنسان حادّ الطباع، خشن المسلك وغير عاطفي. إنّ اندماج الإمام في تلك الواحة الفكريّة والتربويّة

---

[1] سورة البقرة، الآية ١٦٥.

الإلهيّة، وتمتّعه بالروح المتعالية، جعلاه يشعر بنوع من الشفقة حتّى تجاه ألدّ أعدائه وأشدّ مناوئيه مثل نصيري، الشاه، صدام، وريغان؛ إذ إنّ مشاعر العداوة والبغضاء التي بادل بها هؤلاء الأشخاص، لم تكن ذات دوافع شخصيّة كما حاول الأعداء تصويرها، بل بسبب العصيان الذي أبدوه تجاه الحقّ والظلم الذي مارسوه ضد شعوبهم. عندما كان سماحته يدعو الله - عزّ وجلّ - بأن يعجل في موت أحدهم على سبيل المثال، لم يكن يعتبر ذلك الرجاء دعوة شر بحقّه، بل نوع من أنواع الدعاء بالخير والرحمة؛ الخير الذي يتمثّل بتخلّص الشعب من ظلمه من جهة، وبالحدّ من تزايد الإثم في سجلّ عمله من جهة أخرى. وإذا كان سماحته قد انبرى لمجاهدة حكم الشاه والقضاء عليه، فلم يكن ذلك نابعا من عداوة شخصيّة أو ثأر أو انتقام، أو للقضاء عليه للحلول مكانه في السلطة. فلو افترضنا أنّ الشاه قد تبدّل قبل إيغاله في الإجرام رأسا على عقب، وتحوّل إلى إنسان متديّن متعبّد ملتزم بأحكام الله - تعالى -، وبدأ بتطبيق الأوامر والنواهي الدينيّة في المجتمع كما أمره سماحته، لكان الإمام انبرى لحمايته ودعمه، وبذل ما في وسعه في سبيل تقوية حكمه وبسط سلطته.

وعليه، نلاحظ أنّ الإمام(ره) لم يعتبر ذاته مؤشرا يحدّد الأشخاص الذين يشعر حيالهم بالعداوة والبغضاء، بل جعل الله - عزّ وجلّ - ذلك المؤشر؛ إذ إنّه لم يعادِ أحدا في حياته لسبب نابع من الذات، بل كان يعمد دوما إلى غضّ النظر عن أيّة حالة تمسّه شخصيّا، كما أنّه كان يسامح كل الأشخاص الذين بادروه بالإساءة والظلم. وحتّى أنّه عمد إلى الدعاء لبعضهم بالخير وحسن العاقبة، وإلى تفقّد أحوالهم وتتبّع أخبارهم»[1].

عبادتنا عين سياستنا

أدّى تصادم النظم المعرفيّة والفلسفيّة في الغرب إلى احتدام أزمة الإنسان المعاصر ووصوله إلى ضفاف العدميّات، الأمر الذي سوف يساهم

---

[1]- أنوار العروج، مصدر سابق، ص٨٢ - ٨٥.

بشكل أو بآخر إلى الدفع نحو اليقظة الدينيّة وصعود الأصوليّات في المجتمعات الغربيّة، بحسب علماء السياسة والاجتماع الغربيّين. وقد تولّد عن ذلك مفهوم «العلمانيّة المؤمنة» المتمثّل اليوم بالمحافظين الجدد في الولايات المتّحدة الأميركيّة والأحزاب اليمينيّة المحافظة في أوروبا.

وعلى الرغم من وعي الاجتماع الإسلامي لضرورة التوافق بين الإسلام والعصر، إلاّ أنّه ثمّة شكوى يتردّد صداها بقوّة لجهة غياب الطرح الواقعي والشمولي عن مساحة واسعة من الواقع السياسي الإسلامي. وقد توزّعت الطروحات النظريّة في هذا الشأن بين البعد التنويري الذي يفتقر إلى الصدقيّة من حيث التطبيق والتمثيل العملي بعيدا عن تهويمات التنظير، والبعد الأصولي السلفي الذي تنقصه الشموليّة والمعاصرة في الطرح والانفتاح على النص، ونتيجة هذين العاملين بدا واضحا أنّ الأزمة تتمثّل في عدميّة دينيّة من شأنها أن تؤدّي إلى انسداد كافّة أطر التواصل البنّاء والمجدي على مستوى المجتمع والسياسة وكافّة مناحي الحياة.

إنّ هذا الامتداد في خارطة الرؤى الدينيّة على مساحة واسعة من الإهتمام البشري اليوم لا ينبغي أن يدعونا للكثير من التفاؤل، إذ إنّ هذا الانتشار محكوم بخلل التوظيف؛ حيث يتمّ توظيف الديني لصالح السياسي والاجتماعي في النطاق العلماني عموما، أو يتمّ توظيف السياسي والاجتماعي لصالح الديني في نطاق الأصوليّات السلفيّة المتشدّدة. وهذا التوظيف يقوم بشكل أو بآخر على خلفيّة الفصل ما بين الديني والسياسي، وإيجاد ثنائيّة ما بينهما على مستوى الممارسة والأداء، الأمر الذي كان قد تمّ رفضه كليّا في منهج الإمام(ره)؛ وذلك على قاعدة أنّ الإسلام دين سياسته عبادة وعبادته سياسة.

وقد ظهر الإمام(ره) في عصر سيطرت فيه الحضارات الماديّة بقوّة، وأخذت تمارس ضغوطا فكريّة ونفسيّة واجتماعيّة على الحضارات الأخرى بما فيها الحضارة الإسلاميّة، ونتج عن ذلك ما يسمّى بالغزو الثقافي. وقد بلغ الاختراق الثقافي - على مستوى زرع مفهوم «فصل الدين عن السياسة» -

صدى بيّنا في العالم الإسلامي؛ ونجح إلى حد بعيد في إقصاء الدين عن الواقع. وأصبح البحث في مشروعيّة الدور السياسي للعلماء مثارا للجدل، وذلك على الرغم من إيمان المسلمين أنفسهم بالإسلام دينا للحياة والعدل، وتسليمهم بهدفيّة التشريع الإسلامي على مستوى استئصال شأفة الباطل وإحياء الحقّ والعدالة، ووضوح ارتكاز سيرة الرسولﷺ على قاعدة عدم الفصل بين الدين والسياسة بينهم.

وبات الحديث عن دور عالم الدين في النطاق الاجتماعي والسياسي يثير في الذهن تساؤلات عن طبيعة العلاقة بين الدين من جهة والاجتماع والسياسة من جهة أخرى. وذلك التساؤل نشأ من سوء الفهم غير المبرّر لحقيقة الإسلام الشموليّة التي تنعكس في سلوك الربّانيّين بصورة تصميم أكيد على مواصلة النظر بالعمل، والإصرار على الإصلاح الاجتماعي والنهوض السياسي باعتبارهما من لوازم القيام لله - تعالى - على مستوى البناء التربوي والمعنوي للذات. وتعتبر هذه القضيّة من القضايا الجوهريّة التي تؤسس لفهم الدين في السياق الحيوي الذي طالما تمّ تغييبه تحت ركام التجهيل المتفاقم بحقيقة الدين، فلم يعد خافيا على أحد ما لبناء الذات على الأسس الصحيحة من تأثير وإسهام كبيرين في التمهيد للبناء الكلّي على مستوى المجتمع والحياة.

ولقد مورس هذا التجهيل بصورة بشعة في إيران من قِبل سلطة الشاه بغية سَوق الدين ومَن يمثله إلى حظيرة السلطان. فقد استغل الشاه شعار (الصفوية) لمواجهة الدين المتمثل آنذاك بالحوزة العلميّة، واستعاد هذه الحقبة التاريخيّة تحديدا ليستثمرها في خدمة مصالحه، وإخضاع الحوزة العلميّة لمقاليد السلطة بذريعة أنّ المجلسي صاحب كتاب بحار الأنوار لم يعارض النظام الحاكم في عصره، كما أنّ العلماء الذين عاصروا تلك الحقبة كالحر العاملي وغيره إنّما نشطوا تحت سقف السلطة آنذاك.

وقد أشار الدكتور علي شريعتي إلى المصطلح الصفوي في كتابه (التشيّع الصفوي والتشيّع العلوي) قاصدا به تيّارا خاصا يقوم على اعتزاليّة التصوّف،

وجمود العقليّة، وسطحيّة التفكير. ويدعو إلى عدم تدخل العلماء في الشؤون العامّة ولو على مستوى المحاسبة والمراقبة. لهذا فمن حقّ شاه إيران أن يشيد بالتيّار الصفوي علنا، ومن حقّ أسياده في الغرب وأدواتهم في الشرق أن يمالئوا الشاه في ذلك، طالما أنّ مشروعه قائم على إفراغ المؤسسات الدينيّة من مضمونها، بغرض استتباعها واستلحاقها بالسلطة[1].

وقد رفض الإمام(ره) الجدل الدائر حول طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة، وحدود هذه العلاقة، وأعلن عن رؤيته الواضحة والصريحة التي تتماهى مع رؤية الإسلام الحقيقيّة بالقول: «والله إنّ الإسلام كلّه سياسة»[2]. وإذا كان الإسلام كلّه سياسة، فلا مجال للحياد أو التحييد في المسؤوليّة السياسيّة؛ «من حقّ النساء التدخّل في السياسة، إنّه مسؤوليّتهن وتكليفهن، علماء الدين أيضا من حقّهم التدخّل في السياسة، وهو واجبهم وتكليفهم. الدين الإسلامي دين سياسي، كلّ شؤونه سياسة حتّى عبادته»[3]. وبذلك يدين الإمام(ره) الانزياح الحادّ في مفهوم العلاقة بين الدين والحياة، ويفضح زيف

---

[1]- أما وقد قامت الثورة الإسلامية المباركة في إيران بقيادة الإمام الخميني(ره) لتهدم جدار التعصب والجمود الفكري والتخلف والتقوقع والعزلة. فلا عجب أن تستيقظ الإعلاميات والفضائيات العربية اليوم وتنشط للتسويق ضد الثورة بذريعة نزوعها الصفوي! فتقوم بتوظيف مصطلح الصفوية في سياق مختلف يهدف إلى الترويج ضدها وليس لها، وذلك بدافع من التجهيل المقيت ذاته.

[2]- يتحدث الإمام الخميني(ره) في ضمن خطبة له ألقاها في بيته بتاريخ الجمعة ١٠-٤-١٩٦٤م: كتبوا في الجرائد بتاريخ ٤-٨ -١٩٦٣م حين أخرجوني من السجن ما يُفهم منه أن علماء الدين لن يتدخلوا في السياسة. وأنا الآن أُبيّن لكم حقيقة الأمر. لقد جاءني أحدهم ولا أُريد ذكر اسمه، وقال لي: أيّها السيّد إن السياسة كذب وخداع وغش ونفاق، والخلاصة أنها بلاء ولعنة فدعوا ذلك لنا نحن. وبما أن الظرف لم يسمح فلم اشأ مناقشته، فقلت له: نحن منذ البداية لم نتدخل في هذه السياسة التي تتكلم عنها. والآن حيث إن الظرف يستلزم ذلك فإني أقول: أنّ هذا ليس من الإسلام في شيء. والله إن الإسلام كله سياسة. لقد بيّنوا الإسلام بشكل غير سليم. إنّ سياسة المدن تنبع من الإسلام. إنني لست من أولئك الملالي (رجال الدين) الذين يكتفون بالجلوس هنا والتسبيح. أنا لست «البابا» لكي أكتفي بتأدية بعض المراسم يوم الأحد، وأنصرف بقية الأوقات إلى شأني، دون التدخل في الأمور الأخرى. الكوثر، مجموعة من خطابات الإمام الخميني(س)، إعداد مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدولية، ط١، طهران ١٩٩٦م. ج١، ص١٠٤ - ١٠٥.

[3]- مكانة المرأة في فكر الإمام الخميني(س)، اعداد مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني(ره) - الشؤون الدولية، ط١، طهران ١٩٩٦ م. ص٩١.

المفاهيم المترسّبة التي تسعى لإقصاء الدين جانبا، تلك المفاهيم التي كانت قد تسرّبت إلى أذهان أصحاب القداسة المتحجّرة أنفسهم، وراج بينهم فصل الدين عن السياسة، واختزلت الفقاهة إلى مجموعة من الأحكام الفرديّة والعباديّة.

كان العمل على إبعاد المؤسسة الدينيّة عن الشأن العام قائما على قدم وساق، سيّما وأنّ الحوزة العلميّة في قم كانت تحظى بموقعيّة خاصّة في قلب الشعب الإيراني، و«بعد استيلاء النظام البهلوي على السلطة في إيران توالت الأحداث التي أدّت إلى عزلة رجال الدين وابتعادهم عن المجتمع حفاظا على الحدّ الأدنى للبقاء وقد تطوّرت هذه الحالة تدريجيّا لتصبح شيئا مألوفا وعاديّا بحيث لم يكن ممكنا لعالم الدين أن يصبح من رجال السياسة، وإذا أصبح كذلك أحيانا فإنّه يفقد حينذاك صفته كعالم دين.

لم تكن هذه نهاية المطاف بل إنّ البعض كان يرى أن انتهاج السلوك العرفاني وتهذيب الأخلاق يتعارض والخوض في الشؤون الدنيويّة، وللأسف فإنّ وعي رجال الدين الذاتي حول دورهم في المجتمع، وما يتوقّعه الناس منهم، خلّف تصوّرا مقبولا لدى عامّة الناس بأنّ رجل الدين غير سياسي، لذلك كانت السياسة ورجل الدين على طرفي نقيض بشكل ملحوظ، ولكن حضور الإمام في هذه الظروف في هذين المجالين بالذات وفي آن واحد، باعتباره معلّما للأخلاق، وفقيها، وعارفا، وسياسيّا بارعا، اخترق الأجواء القائمة والمهيمنة على الحوزة العلميّة، وقد كان لهذا الاختراق تداعيات، ورفض وقبول.

فالبعض من الرعيل الأوّل من رجالات الحوزة كانوا يعارضون هذا المنهج، وكانت تصرّفات وتصريحات الإمام والتي أدّت إلى سجنه ونفيه، لا تجد وقعا حسنا لديهم؛ إذ اعتبروها دون شأن المرجعيّة. ولكن الجيل الجديد واكب الإمام في خطواته الجريئة. واستطاعت هذه الرؤية أن تهدم جدارا قويّا كان قائما على عزل الدنيا عن الآخرة والسياسة عن الدين. ولم يبادر الإمام إلى هذا التجديد بناء على خصاله الفرديّة والنفسيّة الناجمة عن طباعه ونزعته

الشخصيّة، بل إنّه بنى ذلك على أسس نظريّة ومعرفيّة تبلورت في سلوكه العرفاني. وقد أثبت حضور الإمام عمليًا أنّ معلّم الأخلاق، والفقه، والأصول، والعرفان، بإمكانه أن يلج عالم السياسة محافظا في الوقت نفسه على الشؤون الفقهيّة والمرجعيّة الدينيّة»[1].

إنّ مسألة «عينيّة» الدين والسياسة، تحوّلت إلى «وجهة نظر» حين تحوّل الإسلام إلى «وجهات نظر» تدّعي كل واحدة منها العصمة لذاتها. وهذا من نتائج اغتراب المفاهيم الإسلاميّة، ومما يلفت النظر طريقة تعامل الإمام(ره) مع أمثال هذه القضايا وأسلوب تناوله لها، فهو يتحدّث عن أمثال هذا النوع من القضايا من منطلق البديهيّات التي يمكن بأدنى التفات التنبّه لها، وهو مع ذلك يلفتنا بأسلوب بديع إلى تلك البديهيّة التي تحوّلت إلى وجهة نظر ومثار جدل بسبب ذلك التراكم التغريبي الذي طرأ على مفاهيم الإسلام.

لم يبتدع الإمام(ره) هذه الرؤية من فراغ، وإنّما اقتبسها عن أصلها القويم وأساسها المتين الناشئ من إيمانه بشموليّة الإسلام وجامعيته، تلك الرؤية التي انعكست بوضوح في أبحاث الإمام(ره) العلميّة. يقول في بحث ولاية الفقيه من كتاب البيع: «إنّ كلّ من يلقي نظرة ولو عابرة على أحكام الإسلام وشموليّتها لجميع شؤون المجتمع، وعلى العبادات التي هي تكليف بين العباد وخالقهم، كالصلاة، والحج، - رغم أنّ هاتين العبادتين تتّسمان بأبعاد اجتماعيّة وسياسيّة مرتبطة بالحياة الدنيويّة -، وعلى قوانينه الحقوقيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، سيرى أنّ الإسلام ليس بأحكام عباديّة وأخلاقيّة صرفة. لقد جاء الإسلام ليقيم الحكومة العادلة التي فيها بيت المال، والقوانين الخاصّة بالضرائب، والعقوبات، والقضاء، والحقوق، والجهاد، والدفاع، والمعاهدات التي تعقد بين الدولة الإسلاميّة والدول الأخرى»[2].

---

[1]- الحداثة والتجدد في فكر الإمام الخميني (محاضرة)، مصدر سابق.

[2]- الإمام الخميني(ره)، كتاب البيع، ج٢، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، ايران، قم، ص٤٥٩ - ٤٦٠.

ويؤكد الإمام(ره) في وصيّته الإلهيّة جامعيّة الإسلام وشموليّة أحكامه، فيقول: «الإسلام دين، خلافا للمذاهب والأديان غير التوحيديّة، يتدخّل في جميع الشؤون الفرديّة، والاجتماعيّة، والماديّة، والمعنويّة، والثقافيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والعسكريّة، ويُشرِف عليها. ولم يهمل أيّة ملاحظة - ولو كانت بسيطة - لها دور في تربية الإنسان والمجتمع وتقدمّهما الماديّ والمعنوي. وقد حذّر من الموانع والمشكلات التي تقف في طريق تكامل المجتمع، وسعى إلى إزالتها»[1].

وهذه الجامعيّة لا تقتصر على مجال التنظير، وإنّما تطال حيّز العمل والتطبيق: «كونوا على اطمئنان بأنّ كل ما هو بصلاح المجتمع في بسط العدالة، ورفع أيدي الظلمة، وتأمين الاستقلال والحريّة، والنشاطات الاقتصاديّة وتعديل الثروة، موجود في الإسلام بشكل كامل وبصورة منطقيّة قابلة للتطبيق والتجسيد العملي، ولا يحتاج إلى تأويل خارج حدود المنطق»[2].

ومنذ اللحظة الأولى لانبثاق هذه العينيّة في النظرة إلى الدين والسياسة، واجه الإمام ضغوطات هائلة من الداخل والخارج بسبب تطرّقه للشأن العام، واتخذت هذه المعارضة أشكال متعدّدة وعناوين مختلفة. ونحن إذا تجاهلنا الرؤى التي تصدر عن خلفيات محكومة بالتحامل والجهل بحقيقة الدين الإسلامي، كتلك القائلة بأنّ أحكام الإسلام التي سنّت قبل ألف وأربعمائة عام لا تستطيع إدارة البلدان في العصر الراهن. أو تلك التي تزعم أنّ الإسلام دين رجعي يعارض كل تجدّد وكل مظاهر الحضارة، ولا يمكن في العصر الراهن عزل البلدان عن الحضارة العالميّة ومظاهرها. فإنّنا نجد أنّ الضغوطات الحقيقيّة جاءت من الداخل، وصدرت عن أشخاص يتظاهرون بالدفاع عن قداسة الإسلام، ويتذرّعون بمقولات من قبيل أنّ الإسلام والأديان الإلهيّة

---

[1]- الإمام الخميني(ره)، صحيفة الثورة الإسلامية، نص الوصية السياسية، الترجمة العربية، وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران، ص٥٨.

[2]- المصدر نفسه، ص٥٨.

الأخرى تهتم بالمعنويّات، وتهذيب النفس، والتحذير من المناصب الدنيويّة، والدعوة إلى ترك الدنيا والاشتغال بالعبادات والأذكار والأدعية التي تقرّب الإنسان من الله - تعالى - وتبعده عن الدنيا. وأنّ الحكومة والسياسة والتصدّي لإدارة الأمور تتعارض مع ذلك المقصد والهدف المعنوي الكبير!! لأنّها جميعا من شؤون تعمير الدنيا، وهي متعارضة مع مسلك الأنبياء العظام!! [1].

وهذا الاعتراض سوف يضعنا على المحك مع القضيّة المطروحة هنا، وهو مدى ارتباط الديني في جانبه الروحي بالسياسي والزمني. وهو أمر تصدّى الإمام(ره) لبيانه في وصيّته الخالدة، وكشف عن زيفه وتهافته في نفسه.

وهذا النوع من الاعتراض يستند إلى الرفض المبدئي لتدخّل الديني في السياسي، وهو ناشئ من الدعايات التي تركت آثارها على بعض رجال الدين والمتديّنين الجاهلين بالإسلام، حتّى عدّوا التدخّل في شؤون الحكم والسياسة بمثابة ذنب وفسق، ولعلّ بعضهم يعلم بزيف هذه المقولة، وتلك مأساة كبرى ابتلي بها الإسلام[2].

فيرى الإمام(ره) أنّ ضرورة عدم الفصل بين الدين والدولة تنبع من القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة؛ نظرا لما يحتويان عليه من أحكام الحكم والسياسة إلى درجة لا تبلغه أحكام سائر المجالات الأخرى، بل إنّ كثيرا من الأحكام العباديّة للإسلام هي في واقعها عباديّة سياسيّة. وإنّ من تأمّل القرآن الكريم والنصوص النبويّة بأدنى تأمّل يجد أنّها تسبغ على النشاطات ذات الطابع الاجتماعي والسياسي والإداري الصبغة العباديّة طالما أنّ تلك النشاطات تهدف إلى خير الإنسانيّة وخدمة الخلق؛ وكل عمل يصدر عن الإنسان بهذا الدافع فله جنبة عباديّة.

ويكرّر الإمام(ره) في أكثر من كتاب وخطاب، أنّ الجواب الشافي لهذه المسألة نجده في سيرة النبيﷺ وأهل بيته الكرام؛ فإنّ الحقيقة التاريخيّة

---

[1]- المصدر نفسه، ص٥٨.

[2]- المصدر نفسه، ص٥٨.

السافرة تثبت بوضوح أنّ رسول اللهﷺ لم يكن مجرد بشير ونذير على مستوى الآخرة فحسب، بل عمل بنفسه على إدارة قضايا المجتمع الإسلامي الداخليّة والخارجيّة، فمارس بذلك دور الحاكم والقائد السياسي ورجل الدولة بكل ما للكلمة من معنى. يقول الإمام(ره): «وهذا الرسول الأكرم أيضا، بُعِثَ وحيدا وخطط لمدّة ثلاث عشرة سنة، وحارب لمدّة عشر سنوات، وهو ﷺ لم يقل: ما لنا وللسياسة؟! لقد أدار الدولة الاسلاميّة ولم يقل ما لنا ولهذا الكلام؟!»[1].
وقد باشر النبيﷺ بنفسه إقامة وادارة حكومة مثل سائر حكومات العالم بدافع بسط العدالة الاجتماعيّة. وخلفاء الإسلام الأوائل كانت لهم حكومات واسعة. وكانت حكومة عليّ بن أبي طالبعليه السلام أيضا بنفس الدافع وبشكل أوسع وأشمل، وذلك من بديهيّات التاريخ، وبعده أيضا كانت الحكومات بالتدريج قائمة بالإسلام، وكثيرون اليوم أيضا من يدّعون إقامة الحكومة الإسلاميّة اتباعا للإسلام والرسول الأكرمﷺ.

وأمّا القول بأن الأنبياء عليهم السلام كانوا يهتمّون بالمعنويّات، وأنّ الحكومة وإدارة الأمور الدنيويّة هو شيء مرفوض اجتنبه الأنبياء والأولياء والأئمة، وأنّنا ينبغي أن نقتدي بذلك أيضا، فهو خطأ مؤسف تؤدّي نتائجه إلى فساد الشعوب الإسلاميّة، وإلى فتح الطريق أمام المستعمرين مصّاصي الدماء؛ إذ المرفوض هو الحكومات الشيطانيّة والدكتاتوريّة والظالمة ذات الأهداف السلطويّة والمنحرفة. أمّا حكومة الحقّ المقامة لصالح المستضعفين ولمنع الظلم والجور ولتحقيق العدالة الاجتماعيّة فهي التي سعى إليها أمثال سليمان بن داود ونبي الإسلام الأعظمﷺ وأوصيائه الكرام، وهي من أعظم الواجبات، وإقامتها من أسمى العبادات، كما أنّ السياسة السليمة في هذه الحكومات من الأمور اللازمة[2]. يقول(ره): «إنّ التدخّل في الأمور السياسيّة من أعظم الأمور التي بُعِثَ لأجلها الأنبياء عليهم السلام»[3].

---

[1] الاستقامة والثبات في شخصية القيادة، ترجمة الشيخ كاظم ياسين، ط٢، دار الوسيلة، بيروت ١٩٩٥م. ص٢٦٥.
[2] انظر: الوصية السياسية، ص٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦.
[3] الاستقامة والثبات في شخصية القيادة، مصدر سابق، ص٢٦٦.

مظاهر سياسيّة عباديّة

إنّ البعد التوحيدي في الإسلام يلغي عوامل الفصل والتفكيك، ويؤكد على جامعيّة وشموليّة الإسلام لكلّ مناحي الحياة، لا فرق في ذلك بين المناحي السياسيّة أو الاقتصاديّة أو العباديّة[1]. ولهذا من الخطأ أن نحصر الإسلام في جانب المعنويّات ونهمل الجوانب السياسيّة والعامّة[2]، فقد تعرّضت التشريعات الإسلاميّة للشأن العام قبل أن تتعرض للشأن العبادي الخاص[3]، بل وفاقت الأحكام السياسيّة في حجمها على الأحكام العباديّة[4].

على أنّه ينبغي أن ننظر إلى الجوانب السياسيّة كجزء من الدين نفسه[5]، فالدين الاسلامي كلّه سياسة بما فيه الأمور العباديّة نفسها[6].

إنّ ما يعنينا تحديدا هو إبراز الوجه السياسي للأحكام العباديّة نفسها، وفي هذا المجال سوف نعثر على أشكال متعددة من التعبير السياسي الذي تسهم العبادة في بلورته وتفعيله:

من ذلك، الحديث عن مقارنة الأحكام السياسيّة قياسا بالأحكام المعنويّة في الإسلام؛ إذ من الثابت أنّ الأولى تفوق بكثير الثانية؛ يقول الإمام(ره): «إنّ أحكام الإسلام تشهد على أنّ للإسلام نواحي معنويّة ونواحي ماديّة، له أحكام معنويّة وكثير من أحكامه سياسيّة.. العلاقة ما بين الحاكم والشعب، علاقات الحكومة وعامّة الناس، علاقة الحاكم وبقيّة الحكومات، ومنع المفاسد الموجودة، كل ذلك سياسة، والأحكام السياسيّة في الإسلام أكثر من الأحكام

---

[1]- «إن الإسلام يهدف لتحقيق التكامل الحقيقي وتأمين ما يحتاجه البشر في مناحي الحياة المختلفة سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٢٩.

[2]- «الإسلام نظام ذو جنبة سياسية وأخرى معنوية» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٢٩.

[3]- «إن أحكام الإسلام المقدسة تعرضت للشؤون السياسية والإجتماعية قبل الشؤون العبادية» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٣٠.

[4]- «إن أحكام الإسلام السياسية أكثر من أحكامه العبادية» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٣٠.

[5]- «الإسلام دين السياسة، وفيه حكومة» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٣٠.

[6]- «الدين الإسلامي دين سياسي، وكل أموره سياسية، حتى العبادية منها» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٣٠.

العباديّة، للإسلام كتب سياسيّة أكثر مما له كتب عباديّة»[1].

ومن ذلك، ما تقوم به العبادات من دور على مستوى صقل الذات وتمحيصها في مواجهة الظلم وطغيان الجبابرة، وما ينشأ عن ذلك من نتائج إيجابيّة بناءة على مستوى تحصين النفس وتدعيمها. وهو دور يحظى بأهميّة فائقة على مستوى فلسفة العبادة. يقول السيّد الخامنئي(حفظه الله) بعد أن ينوّع العبادة إلى فرديّة، واجتماعيّة، وسياسيّة:

«ولكلّ واحدة من هذه العبادات منزلة ولكل منها أثره، إنها تصقلكم وتشحذ هممكم وتهبكم العزيمة الفولاذيّة، وهي عامل تمحيص لهؤلاء الشبان حتّى تجعلهم على درجة من المتانة بحيث يقاومون نفوذ الشيطان وتسلّل الأعداء وتسرّب الفساد وتأثير الغزو الثقافي. في عهود الكبت كانت العناصر المؤمنة تلتجئ إلى الصوم ليزيدها صلابة وصمودا ضد ضغوط السلطة الحاكمة، وضد مغريات ونوازع حياة الدعة التي تفرض عليهم التخلّي عن نشاطهم الجهادي. هكذا تكون عبادة اللّه. وهكذا يكون المثول بين يدي الخالق. حينما تصلّون تستشعرون الطمأنينة، وتجدون فيها منجاة من اضطراب النفس. وأنتم عبر مناجاتكم للّه وتضرعكم له إنّما تعملون على تنقية أنفسكم وتطهيرها من الدنس والشوائب والرذيلة. وفي صومكم تمحيص وصقل لذواتكم حتّى تجعلوها كَزُبر الحديد. وهكذا على الدوام. إنّ ما نجنيه من العبادة له قيمة مهمّة، وهو في غاية العظمة. ينبغي أن نحمد اللّه - تعالى - الذي سنّ الصلاة والصوم والعبادة وأتاح لنا جني هذه الفوائد منها»[2].

ومن ذلك، ما تقوم به العبادة من إيحاء قوي من شأنه أن يحرّك الشعور والوجدان الشعبي والعام باتجاه الحق؛ ذلك أنّ الأعمال العباديّة لا تقتصر في دورها على الجانب الوظائفي المعلن والمباشر على مستوى الأفراد في

---

[1] الاستقامة والثبات في شخصية القيادة، مصدر سابق، ص٢٦٥.

[2] من كلمة للقائد الخامنئي خلال لقائه حشد من العلماء وطلبة الحوزة وأهالي مدينة قم بمناسبة ذكرى انتفاضة أهالي قم. الموقع: (www.al-imam.org)، الخطابات والنداءات، تاريخ الخطاب ٧-١-١٩٩٧م. تاريخ الدخول إلى الموقع ٥-٧-٢٠٠٧.

المجتمع، بل تتجاوز ذلك إلى السياق الإيحائي الذي يسهم في تعبئة النفوس وشحنها بالدلالات الهادفة على صعيد مصلحة الكيان الجماعي. وهذا يعني أنّ العبادات مدعوّة لتمارس دورا تعبويّا يتّسم بالخطورة، وهذا الدور لن يتأتى إلاّ على صعيد الممارسة الصادقة والفاعلة بحيث يتجلّى أثر العبادة بطرق مختلفة تبعا لاختلاف مستويات الأداء والممارسة؛ فتقوم العبادات بأداء دورها الكلي حين تمارس إيحاءا قويّا يبعث على التأثير الفعال؛ وفي هذا السياق يحدثنا التاريخ أنّ أحد الأئمة كاد أن يحدث تغييرا جذريّا في الواقع الاجتماعي والسياسي السائد في عصره، وذلك بمجرّد أن خطا عدة خطوات في طريقه لأداء صلاة العيد.

ومن ذلك، ما توجده روح العبادة من تآنس بين الأنفس في المجتمع، وتوحّد بين أفراده في الالتزامات والميول والسلوك، حين يقيمون الصلاة بكيفيّة موحّدة، ويصومون بالكيفيّة ذاتها، ويقومون بالأفعال ذاتها، ويردّدون الأقوال نفسها.. وحتّى الأخلاق الإسلاميّة نفسها، فإنّها تتّخذ صبغة اجتماعيّة حين تدعو إلى التآلف والتعاضد بين المؤمنين بمقتضى أنّهم أخوة، على اختلاف انتماءاتهم وأجناسهم، فلا فضل لعربي في ذلك على أعجمي إلاّ بالتقوى، وفي هذا حكم أخلاقي واجتماعي وسياسي معا.

وسوف نركّز الحديث هنا حول بعض مظاهر الاجتماع السياسي الذي يقترن بالمناسبات العباديّة في الإسلام، ويهدف إلى بثّ الوعي، لما لهذا الدور من مدخليّة مباشرة حيّة وملموسة في مجال البحث. وهو جانب أساسي في اهتمامات الإمام(ره)؛ إذ يتّضح من بيانات الإمام(ره) المختلفة أنّ الأبعاد السياسيّة والاجتماعيّة العامّة التي تكتنف بعض النشاطات العباديّة وتواكبها لها دور فاعل في تنشيط الوعي وشحذ الهمم بين المسلمين.

وتتعدّد مظاهر الاجتماع السياسي في الإسلام، سيّما تلك المقترنة بالعبادات وفق تنظيم محكم البنيان، يظهر ذلك في حثّ المسلمين على التردّد إلى المسجد، وإقامة صلاة الجماعة، والاهتمام بصلاة الجمعة، وما يصحب

ذلك من خطب تتعرّض للشأن السياسي والاجتماعي والاقتصادي. كما يظهر ذلك في الحثّ على إقامة صلاة العيدين في مناسبتين سنويّتين كبيرتين هما الفطر والأضحى، وإقامة خطبتي العيد حيث تطرح القضايا السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. كما أوجب الإسلام على المسلمين الحج، وفيه يجتمع المسلمون من جميع البلدان الإسلاميّة وتدرس أوضاع البلدان الإسلاميّة وشؤونهم العامّة، مع ما لتواجد المسلمين هناك من مختلف البلاد والجنسيّات، وعلى صعيد واحد، ولباس موحد، من أثر كبير.

إذن، هناك اجتماعات تتّصف بالطابع السياسي بامتياز كبير في الإسلام، وهذه الاجتماعات تقرن دائما بالأجواء العباديّة والإيمانيّة، سواء أكانت اجتماعات يوميّة حيث تقام صلاة الجماعة في المسجد ويتم تداول شؤون المنطقة التي تقام فيها الصلاة، أو كانت اجتماعات أسبوعيّة حيث تقام صلاة الجمعة وخطبتها وينصبّ الاهتمام على القضايا العامّة الأوسع نطاقا، أو كان اجتماعات سنويّة حيث تقام صلاة العيد مرتين في السنة، وكذلك الحج حيث يكون التجمّع الأكبر للمسلمين، وتدرس فيه أوضاع البلدان الإسلاميّة وشؤون المسلمين.

ينظر الإمام(ره) إلى المسجد على أنّه خندق إسلامي، ومكان لتجمّع الناس وتثوير الجماهير للانتفاضة ضد الظلم[1]. فالمساجد هي التي تحقّق النصر[2]، وتحيي الثورة، وهي حصون الإسلام المنيعة[3]. وقد كان المسجد الحرام والمساجد في زمن الرسول الأكرمﷺ منطلقا لإعلان الحروب، وتعبئة

---

[1]- «المسجد هو خندق إسلامي، والمحراب هو محل الحرب، إنّهم يريدون أن يأخذوا هذا منكم، بل إن ذلك مقدمة، وإلاّ فاذهبوا وصلوا ما شئتم، إنّهم تضرروا من المسجد خلال هاتين السنتين أو الثلاث الأخيرة، إذ أصبح المسجد مكانا لتجمع الناس، وتثوير الجماهير للانتفاضة ضد الظلم، إنّهم يريدون اخذ هذا الخندق منكم» منهجية الثورة الإسلامية «مقتطفات من أفكار وآراء الإمام الخميني(ره)»، مؤسسة نشر وتنظيم تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدولية، ص٤٧٩.

[2]- «إن المساجد هي التي حققت النصر لأبناء شعبنا، وهي مراكز حساسة ينبغي بالشعب الاهتمام بها» منهجية الثورة الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٧٨.

[3]- «أحيوا الثورة من خلال المساجد، التي تعتبر حصون الإسلام المنيعة، وأديموا اتقاد الثورة بالشعارات الإسلامية» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٦٥.

الناس وإرسال الجيوش[1]، كما كانت مراكزا للإعلام والتبليغ[2]، حيث كان الإعلام الإسلامي ينطلق من المسجد[3]. وكان المسجد مركزا للتجمّعات السياسيّة [4] وطرح وتداول القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة، وليس فقط المسائل العباديّة كالصلاة والصوم[5].

وفي ما يخصّ الحج، يشدّد الإمام(ره) في توجيهاته وإرشاداته المتعلّقة بهذه المناسبة المهمّة على ضرورة إبراز المضمون الحقيقي للحج، داعيا المسلمين إلى تجسيد فلسفة الحج في واقعهم عبر التلاقي والتعارف والتوحّد. كما ويشخّص واحدة من أهم وظائف الحج في البعد العقائدي والسياسي، وذلك من خلال حثّ المسلمين على إطلاق صرخة البراءة من المشركين، ودعوتهم إلى التبصّر بالعدو المشترك، وتوحيد الموقف منه، وإعلان الرفض لكل أشكال الكفر والظلم والطغيان البشري: «إنّ صرخة براءتنا من المشركين والكفّار اليوم، هي صرخة البراءة من الظلم والظالمين، صرخة أمّة ضاقت ذرعا باعتداءات الشرق والغرب وعلى رأسهم أمريكا وأذنابها، وغضبت من نهب بيتها وثرواتها».[6]

ويؤكّد الإمام(ره) على ضرورة التمييز بين نوعين من الحج، هما الحج الإبراهيمي والحج الأمريكي:

فالحج الأمريكي لا يخرج عن كونه سفرا ترفيهيّا لمشاهدة القبلة والمدينة

---

(1)- «كان المسجد الحرام والمساجد في زمن الرسول الأكرم(ص) مركزا للحروب، ومركزا للقضايا الاجتماعية والسياسية، فلم يقتصر دور مسجد الرسول(ص) على المسائل العبادية كالصلاة والصوم، بل كانت المسائل السياسية أكثر من ذلك وكان يبدأ من المسجد متى ما أراد تعبئة الناس وإرسال الجيوش» منهجية الثورة الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٧٨.

(2)- «المسجد هو مركز الإعلام والتبليغ» الكلمات القصار مصدر سابق، ص٦٤.

(3)- «كان الإعلام الإسلامي ينطلق من المسجد» منهجية الثورة الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٧٨.

(4)- «المسجد هو مركز التجمعات السياسية» الكلمات القصار، مصدر سابق، ص٦٤.

(5)- «لم يقتصر مسجد الرسول(ص) على المسائل العبادية كالصلاة والصوم، بل كانت المسائل السياسية أكثر من ذلك» منهجية الثورة الإسلامية، مصدر سابق، ص٤٧٨.

(6)- القضية الفلسطينية في كلام الإمام الخميني(س)، إعداد سفارة الجمهورية الاسلامية الايرانية دمشق، ط١، ٢٠٠٠م. ص٢٨١.

وتكرار سلسلة من الألفاظ المفرغة من معناها، وأداء سلسلة من الحركات الخالية من المضمون. والحاج هنا لا يعلم شيئًا عن فلسفة رمي الجمرات وتقديم الأُضحية، ولا يعي الهدف من الطواف حول الكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، والإحرام. والحاج - في الحج الأمريكي - لا دخل له بكيفيّة استيفاء مسلمي العالم ومستضعفيه لحقوقهم من أيدي الظالمين. وهو ليس معنيًا بمعاناة المسلمين الفلسطينيين على يد الكيان الغاصب للقدس، كما ليس معنيًا بالتحرّكات المشبوهة لقادة الدول الإسلاميّة الرامية إلى إقامة العلاقات مع الكيان الصهيوني المحتل وتسويغ مؤتمرات «السلام»، وكذلك ليس معنيًا بما يعانيه المسلمون والمحرومون في كافّة أنحاء العالم الإسلامي.

إنّ الحج الخالي من الروح، والحركة، والقيام، والبراءة، والتوحيد، والعاجز عن هدم صروح الكفر والشرك، هو ليس حجًا في الحقيقة. والحج الحقيقي هو الحج الإبراهيمي المحمّدي الذي هو تجلّ وتكرار لجميع مشاهد إبداع الحبّ في حياة الإنسان والمجتمع المتكامل في الدنيا، وفلسفة الحج هنا هي رؤية صاحب البيت، ولا بدّ من توجّه الحركات والأعمال التي تؤدّى هناك في هذا السبيل.

والمناسك التي تؤدّى في الحج الإبراهيمي ينبغي أن تنعكس على مجمل الحياة، بل إنّ مناسك الحج هي مناسك الحياة نفسها، وعلى الأُمّة الإسلاميّة بمختلف قوميّاتها أن تصبح إبراهيميّة لتلتحق بركب أُمّة محمّد ﷺ وتكون يدا واحدة. والحج إلى ذلك يمثل مركز المعارف الإلهيّة والذي ينبغي أن يؤخذ منه محتوى السياسة الإسلاميّة في جميع الأبعاد والشؤون الحياتيّة.

والبعد السياسي للحج لا يقلّ من حيث الأهميّة عن بعده العبادي، ففي البعد السياسي عبادة؛ إذ إنّ الحج قيام: **﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾**[1]، وهذا القيام للناس لا بُدّ من الاجتماع فيه، وتعيين منافع الناس في تلك المواقف الشريفة، وليست منافع الناس أن يذهبوا هناك ويجلبوا

---

[1]- سورة المائدة، الآية ٩٧.

البضائع ويبتاعوا السلع الأمريكية!! وأيّ نفع أعلى وأسمى من أن تقطع أيدي جبابرة العالم والجائرين من التسلط على البلدان المظلومة، وتصبح ثرواتها العظيمة بأيدي أبنائها!!.

يقول الإمام حول الآية الكريمة: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾[1] أنه ليس المقصود التطهير من النجاسات الظاهريّة وحسب، فبيت الله يجب أن يطهّر من الأرجاس المعنويّة أيضا والتي يفوق ضررها وخطرها على المجتمع ضرر وخطر أيّ شيء آخر. فالمراد هو التطهير من جميع الأرجاس التي يأتي على رأسها الشرك، كما يتبيّن في صدر الآية الكريمة.

ومن مهمات الحج إيجاد التفاهم، وتعزيز الأخوّة بين المسلمين، وعلى العلماء والخطباء طرح المسائل الأساسيّة والسياسيّة والاجتماعيّة مع إخوتهم في الدين وإعداد مشاريع الحلول، ليطرحوها بدورهم على العلماء وأصحاب الرأي لدى عودتهم إلى بلدانهم.

والتكليف الإلهي للحجاج في زماننا هو أن يرفض المسلمون كلّ موضوع يُشم منه رائحة الاختلاف والوقيعة بين صفوفهم. وأن يعتبروا البراءة من الكفار وقادتهم واجبا من واجباتهم في المواقف الكريمة، ليكون حجّهم حجّا إبراهيميّا محمديّا، وعدا ذلك سيصدق عليهم القول المعروف: ما أكثر الضجيج، وأقل الحجيج. فقد «كان موسم الحج فرصة نادرة بالنسبة إلى الإمام ليوصل حملة استنهاضه إلى كل المسلمين في العالم، عبر هذا الاجتماع الإسلامي الحاشد المقدس الذي ليس بمقدور أيّ إنسان أو أيّة دولة عقد اجتماع بحجمه وأهميته. فأمْر الله - تعالى - وحده هو القادر على صناعة هذا الاجتماع العظيم الذي لم يحسن المسلمون على مرّ التاريخ الاستفادة من قوّته السماويّة لنفع الإسلام والمسلمين كما يلزم، ولذلك تصدّى الإمام لهذا الفراغ الحاصل بكل ما أوتي من عزم وإمكانات لإعادة ربط هذا المؤتمر الكبير بالأهداف الأصيلة التي أراده الله من أجلها، بالإضافة إلى المحتوى العبادي.

---

[1] سورة الحج، الآية ٢٦.

فلا يكتفون بالجانب الشكلي أو الطقوسي منه ليعودوا بعده فرادى متفرّقين لا يرى الحاج منهم الإخلاص نفسه»[1]. هذا جانب من نظرة الإمام(ره) إلى الحج، والتي تحفل بمضامين سياسيّة حيّة، وتصرّح بفلسفة إحيائيّة لمراسم الحج الإبراهيمي.

والنماذج المتقدّمة تعكس لنا مظاهر سياسيّة بارزة ندب إليها التشريع وأوجبها في إطار ممارسة العبوديّة لله - تعالى -، وقد نبّه إليها الإمام(ره) ليخلص من ذلك إلى أنّ الإسلام ليس مجرد وظيفة فرديّة تقتصر على العلاقة الروحانيّة بين الإنسان وخالقه، كما أنّه ليس دينا سياسيّا فحسب، بل هو دين عبادي وسياسي، ويتضمّن في أبعاده العباديّة أبعادا سياسيّة أيضا. يقول الإمام الخميني(ره): «كما أنّ لمباحث الحج، وصلاة الجمعة والجماعات، نواح عباديّة، كذلك فإنّ لها أيضا نواح سياسيّة واجتماعيّة. أي أنّ الناحية العباديّة مندمجة في الناحية السياسيّة. فليس الإسلام دينا عباديّا فقط، وليس فقط علاقة بين العبد والله - تبارك وتعالى -، وليس تكليفا روحانيّا فقط، بل هو دين عبادي وسياسي، وسياسته مندمجة في عباداته»[2].

تمثّلات الروح في السلوك السياسي

كان ظهور الإمام(ره) في عصر تغلّبت فيه القيم الماديّة بين شرق وغرب، يشبه سريان شعلة الروح المضيئة في جسد هذا العالم الميت، لتعيد إليه دفء الحياة من جديد.

وكان الإمام(ره) يتمتّع بنظرة ثاقبة وبصيرة نفّاذة تجعله يطمئن إلى ما يصدر عنه من مواقف على المستوى السياسي والاجتماعي اطمئنانا تاما بحيث إنّ الكثير من القضايا التي تعتبر شائكة بنظر الآخرين كانت بديهيّات بالنسبة إليه. ولم تكن بصيرة الإمام الوقّادة مشهودة في مواجهته للنظام

---

[1] سمير سليمان، الإمام الخميني والمشروع الحضاري الإسلامي، ط١، دار الوسيلة، بيروت ١٩٩٢م. ص١٣٦.

[2] الاستقامة والثبات في شخصية القيادة، مصدر سابق، ص١٦١.

البهلوي فحسب، بل كان ذلك مشهودا أيضا في مواجهة الأشخاص والفئات المختلفة. فينقل الشهيد مصطفى الخميني(ره) عن الإمام قوله: أحيانا يدخل عليّ الشخص، فلا يكاد يتمّ كلامه حتّى أدرك ماذا يريد أن يقول، وما هي فكرته، وماذا يريد مني[1].

وحين قامت مجموعة من منظمة «مجاهدي خلق» باختطاف طائرة إيرانيّة من مطار دبي والهبوط بها في مطار بغداد، حضر أحد أفراد هذه المجموعة عند الإمام طالبا منه تأييد المنظمة.

فأجابه الإمام: أنا لا أستطيع تقديم التأييد لكم، قبل أن أطّلع على هويّة منظمتكم؛ ويقتضي ذلك البحث والاطّلاع على مدّوناتكم وكتبكم.

أضاف الإمام: كان يتكلم، وأنا أنصت له؛ تكلّم عن برامج هذه المنظمة وأفكارها وأيديولوجيّتها، واطّلعت على ما قدّمه من كتب ومطبوعات وقرأتها، فتوصّلت إلى حقيقة واضحة هي أن هؤلاء من أولئك المنحرفين اليساريين الذين يعرفون - حقّ المعرفة - أنّ الشعب الإيراني شعب تغلغل الدين في أعماقه وأكنافه منذ ألف سنة، ولذلك فإنّ أيّة حركة تُولد في هذا الوسط، ولا تستند إلى الإسلام، سوف يكون نصيبها الفشل. لذا فإنّ هؤلاء يريدون من تظاهرهم بالإسلام، اتّخاذه ستارا يطرحون من ورائه آراءهم، التي هي الآراء والمعتقدات الإلحاديّة نفسها التي تطرحها الفئات الماركسيّة والشيوعيّة الأخرى.

لم يؤيّد الإمام هذه الحركة إطلاقا، وكان حذرا منها، على الرغم من محاولات مختلف الأطراف والجهات السياسيّة والوطنيّة، إنّ كل الضغوط الناشئة عليه بهذا الخصوص لم تستطع أن تغيّر من إرادته وتصميمه شيئا.

إنّ مواقف الإمام الشجاعة أثبتت أنّه رجل الساعة، مع أنّ الجوّ كان في ذلك اليوم لصالح هذه المجموعة التي تستمت أوج قوّتها، وأصبح يُحسب لها حسابها في الساحة، ولا يجرؤ أحد على التعرّض لها بأيّ انتقاد، لأنه كان

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص٢٠١.

سيتعرض لضربة شديدة موجعة.

إنّ الكثير كانوا يعتقدون أنّ الإمام قد انتهى دوره في النضال، وأنّه لعدم تأييده منظمة «مجاهدي خلق» وقّع على إعلان فشله بيده، واعتزل الساحة! فقد كان الميدان ميدان هذه المنظمة فقط، ولا يوجد غيرها من سيتولّى قيادة الجماهير، والسير بالثورة نحو تحقيق النصر.

وفي الواقع ينبغي القول إنّ هذه الفئة كانت قد أوجدت لها موطئ قدم بين بعض الناس، وكان الإمام على علم تام بذلك، وكانت الرسائل ترده تباعا من إيران، يقول بعضها: أنّ شعبيّة الإمام قد انخفضت بين الناس، وأنّ مواقفه ونضاله بدأ يلفّه النسيان شيئا فشيئا. وقد احتلّ من يُدّعَون «مجاهدي خلق» هذه المكانة بين الجمهور.

ولكن الإمام بقي كالطود الصامد، لم يفتّ كل ذلك في عضده، ولم يضعف قوّة إرادته وتصميمه، ولقد أثبت للملأ وللعالم - بعد حين - كم كانت خطيرة ومنحرفة تلك المجموعة، حيث أرادت الانحراف بخطّ الثورة عن أهدافها، بل كانت تريد القضاء على الإسلام قضاء مبرما[1].

ولا شك في أنّ هذه النورانيّة المشرقة التي تميّز بها الإمام(ره) على مستوى وضوح الرؤية، تستمدّ قوّتها في الأساس من العمق الروحي والرسوخ المعنوي المتجسّد في ذاته الشريفة.

ودائما كان الإمام يحثّ طلابه في دروسه ومواعظه، إلى أهميّة هذا العامل الروحي في معادلة الحقّ والباطل، مشدّدا على ضرورة الاحتفاظ بحضور هذه الروح الرساليّة في ميدان المواجهة للباطل؛ ذلك أنّ الهزيمة الحقيقيّة هي هزيمة الروح، والنصر الحقيقي هو انتصار الروح، والروح المنتصرة هي الروح المرتبطة بالله؛ إذ الروح المرتبطة بالله لا تهزم: «إنّ كل ما سيقع إمّا أن يكون ضارّا أو نافعا؛ فإن كان فيه ضرر فلا تهنوا، ولا بأس إن كان ما يصيبكم

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص ص٢٠٢.

وهن ظاهري، ولكن المهمّ هو أن لا تصابوا بالوهن الروحي، فإذا هُزم الإنسان روحيّا فسيكون بحكم الأموات. أنتم تستندون إلى ذات الله - تعالى -، أنتم علماء، وقلوبكم متعلّقة في عالم ما وراء الطبيعة، وذلك العالم لا هزيمة فيه. الدنيا ليست بأمر ذي بال، إنّ المتعلّق بالله لا يُهزم، فالهزيمة لمن كانت الدنيا أمله. إذا كانت الدنيا هي منتهى الأمل، فتلك هي الهزيمة، أما إذا كانت الآمال متعلّقة بالغيب وبما وراء الغيب فلا هزيمة. الهزيمة لأولئك الأشقياء، والهزيمة لأولئك المعتمدين على الشيطان، والذين تمكّنت زينة الدنيا من قلوبهم. فإذا وقع أمر فيه ضرر لكم، فلتكن قلوبكم قويّة، واصمدوا إلى آخر رجل منكم. لا تظنّوا أنّ الأمر قد حُسم بانكسار فلان! كلا، فأنت موحّدٌ آخر، وأنت مسلم آخر، أنت مرتبط بالله، والله لا يُهزم **﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾**[1][2].

إنّ الروح المؤمنة لا تعرف معنى للخوف والخشية إلاّ من خالقها، ذلك أنّ الله - تعالى - هو الضارّ النافع، ولا أثر لمخلوق في مقابل إرادة الله. وبعد أن يفتتح الإمام(ره) إحدى خطاباته بالآية الكريمة: **﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**[3] يقول موجّها خطابه للحضور: «لمّا لم تكن أميركا أو بريطانيا أو «إسرائيل»، هنّ ربنا، ولمّا كان الله هو الربّ، فما لنا نخاف؟ وما لنا نحزن؟! إنّ مَن يريدون أن نخافهم ليسوا بشرا أصلا، فبماذا يهدّدوننا؟ ولِمَ علينا أن نخاف من تهديداتهم؟! لقد أتممت الثالثة والستين من العمر في هذا العام، وقد التحق الرسول الأكرم ﷺ بالرفيق الأعلى وهو في الثالثة والستين من عمره الشريف، وكذا أمير المؤمنين عليه السلام (عندها بكى الحاضرون)، فلِمَ علينا أن نخافهم؟! نحن أتباع الرسول الأكرم ﷺ وأتباع أمير

---

[1]- سورة آل عمران، الآية ١٣٩.

[2]- الكوثر، مصدر سابق، ج١، خطاب رقم٤.

[3]- سورة فصلت، الآية ٣٠.

المؤمنين عليه السلام وأتباع أبي عبد الله عليه السلام فلِمَ الخوف.؟! أعدّوا أنفسكم للقتل، أعدّوا أنفسكم للسجن، أعدّوا أنفسكم للخدمة الإلزاميّة، أعدّوا أنفسكم للتعرّض للإهانة والهتك، ولتحمّل المصائب التي ستلاقيكم في سبيل الدفاع عن الإسلام واستقلال البلاد. شدّوا الأحزمة، واستعدّوا للسجن والنفي والخدمة الإلزاميّة وخلع العمائم»[1].

إنّ متابعة السيرة السياسيّة للإمام(ره) والتي تعتبر حلقة متواصلة من الجهاد والنهوض، من شأنها أن تفصح عن هذا التميّز الروحي في سلوكه، فكما كان الإمام عظيما في خطاباته وتوجيهاته، كان أيضا عظيما وهو يترجم تلك الكلمات إلى أفعال ومواقف صاخبة، سيما في الزمن الذي تعالت فيه أبواق التهويل والترهيب، وارتكبت فيه أبشع المجازر بغية إسقاط الروح وسحق المعنويات وإرهاب الكل. ففي زمن الصمت هذا، نطق الإمام بكلمته. وبعدها، سوف يندر أن نجد له مثيلا في الإباء والشموخ والثبات، وسوف يتعذّر أن نجد لروحه تفسيرا خارج نطاق المرجعيّة العرفانيّة والمعنويّة.

فقد تعرضت مدرسة الفيضيّة لحملة عنيفة بهدف بث الرعب في صفوف العلماء وإسكاتهم وعزلهم عن الساحة، ومنع الناس عنهم. فقام النظام بحملة وحشيّة، تضمّخت على إثرها الأرض بالدماء، وانتشر الرعب والخوف في أرجاء إيران كافّة، وكان ذلك كافيا لأن يحبس الناس أنفاسهم في الصدور مدة خمسين سنة أخرى.

وقد مرّ على حادثة مدرسة الفيضيّة أسبوع كامل، ومع ذلك، ظلت أبواب البيوت مغلقة منذ وقوع الحادث، ولم يجرؤ أحد على الخروج إلى الشوارع سيما بالزيّ العلمائي، كما كان الناس لا يجرءون على التقرّب من منزل أحد من مراجع الدين. فقد كان الإرهاب والخوف قد سيطرا على الأنحاء كافّة، وساد وضع غير اعتيادي موحش.

---

[1] دراسة وتحليل لنهضة الإمام الخميني(س)، ج١، ص٣١٠.

في هذه الأجواء الحافلة بالخشية والهلع، سوف يباغت الإمام الناس بإصدار بيان جاء فيه:

«تأييد الشاه يعني السطو والنهب، وتأييد الشاه يعني قتل البشر، واستباحة الدماء، وتأييد الشاه ومحبّته يعنيان هدم الإسلام، ومحو آثار الرسالة».

كان هذا البيان بمثابة الماء المنسكب على ألسنة اللهب، فأخمدها بأسلوب يجلب الانتباه. وبمهارة فائقة، شكّل ضربة قاصمة بالصميم لمخطط السلطة الجائرة، وقلب خططها رأسا على عقب، مما جعل النظام عاجزا مبهوتا. أدرك الإمام ببعد نظره ما يبيّته النظام من وراء هذه التدابير القمعيّة، والمخطّطات الجهنميّة، فبادر على الفور إلى المواجهة وقاوم المؤامرة وأحبطها بعزم وثبات قل نظيرهما[1].

حينها، كتب أحد العلماء في مذكّراته يقول: استسمحَ أحدُ الطلاب الإمام بالقول: اسمحوا لنا بإغلاق باب المنزل، فقد يتعرّض منزل سماحتكم للهجوم.

فقال الإمام: لا أسمح بذلك.

عندها علّق أحد أصدقاء الإمام - وكان جالسا إلى جانبه - بالقول: أرى أنّه اقتراح لا بأس به، فلتسمحوا بغلق الباب، فالوضع خطير.

فقال الإمام: قلت كلاّ، وإذا أصررتم فإني سأخرج من المنزل واذهب إلى الشارع لتلقّي الضرب بهذه العصي، أيضربون الطلاب وأُغلق أنا بيتي، أي كلام هذا؟!.

توضّأ الإمام(ره) وصلّى بالحاضرين في ساحة المنزل، وألقى كلمة قصيرة، ومما قاله: لقد انتهى هؤلاء، وحفروا قبورهم بأيديهم، فبضربهم الفيضيّة، وقتلهم الطلاب وجرحهم، قطعوا جذورهم وفضحوا أنفسهم، فهل يمكن الوقوف بوجه المدرسة الفيضيّة، مدرسة الإمام الصادق عليه السلام؟.

وبعيدا عن صورة العمل المحكيّ هنا، سوف نحاول الاقتراب قليلا من تلك

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٩٧.

الروح المبتهجة بنعمة القرب الإلهي التي ظلّت محتفظة بحيويّة الجنوح الإيماني في شكل إستجابة فوريّة تلقائيّة بسبب من وضوح الرؤية لا يشوبه أدنى تردّد أو تزلزل، وهنا فقط سوف يتولّد إيمان عميق وثقة تامّة بالعناية الإلهيّة النافذة في كل شيء، والتي تظهر للناظر بعين الله - تعالى - في صفاء ووضوح كبيرين. ومعها لا يعود ثمة معنى للهزيمة أمام مثبّطات العزائم، ولا معنى للخشية من أحد سوى الله - تعالى -؛ إذ هو النافع الضارّ، ولا مؤثّر في الوجود سواه.

وما أصدق تعبير ذلك العظيم، آية الله العظمى الشيخ محمّد علي الآراكي(ره)، إذ يقول بحقّ الإمام: هذا الرجل انحنت له المروءة فقام مقابل الكفر، فجعل يد الغيب تلازمه بما يحيّر العقول.. ومثال هذا الإنسان نادر، قلّ نظيره، بل لا نظير له[1].

يستعيد الشيخ جوادي الآملي المشهد نفسه، فيقول: واجه الإمام(ره) السلطة الحاكمة بقوّة، قال لهم: «لقد بيّضتم وجه جنكيز خان المغولي!». فكان لهذا البيان أثرا عظيما في بثّ الروح المعنويّة في الحوزة العلميّة وفي كل إيران.

لقد أحيا النفوس، وفي ظل إحياء النفوس أحيا العلوم الإلهيّة، فأيّده الله بإمداداته الغيبيّة، ونزع خوف الموت من نفوس الطلبة، خوف السجن والقمع، خوف النفي والحرمان والتبعيد من الحوزات العلميّة، بل إنّه أخاف الخوف لئلاّ يتسلّل إلى الحوزة العلميّة، وأرعب الرعب لئلاّ يتوغّل إلى قلوب أولياء الله، وحقّق تعاليم المدرسة القرآنيّة القائلة: **﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[2]، بسيرته البرهانيّة والعرفانيّة، لم يخف ولم يخوّف، ولم يهب ولم يهيّب[3].

---

[1]- قبسات من حياة الإمام، إعداد لجنة إمداد الإمام الخميني(ره) / القسم الثقافي، ط1، بيروت، 1411 هـ. ص12، 13.

[2]- سورة يونس، الآية 62.

[3]- قبسات من حياة الإمام، مصدر سابق، ص22.

إنّ هذا التوكّل المطلق يفسّر لنا سرّ الشموخ والإباء والعنفوان الذي يتجلّى بوضوح في سلوك الربّانيّين بحيث يترجَم إلى موقف الرفض الصارخ لكلّ أشكال الظلم والجور والباطل دون أدنى تردّد أو مساومة، أكان مصدر ذلك الظلم هو العدو الداخلي أو العدو الخارجي. كما يفسّر لنا أيضا معياريّة السلوك العرفاني وصوابيّته.

وكان الإمام(ره) حين يأتيه المسؤولون أوقات المصائب والمشاكل يتكلّم عن الله وكأنّه لا يرى أحدا غيره. إنّه يقول: «لا تخافوا، فإنّ الله معنا»، وهو متيقّن من صحّة قوله هذا، معتمدا على الله وشعاع نور الإيمان في قلوب الحاضرين[1].

ومرّة أخرى، يواجه النظام أعاصير الثورة في طول البلاد وعرضها؛ فتهبّ المخابرات الإيرانيّة (السافاك) لاستدعاء العلماء والخطباء في طهران بإيعاز من السلطة، وتعمّم عليهم: إنّنا لا نريد أن نقول لكم لا تنتقدوا الدولة إطلاقا، ولا تتكلّموا نهائيا، ولا تتطرّقوا إلى القضايا السياسيّة أبدا من فوق المنابر وفي المساجد، ولكنّنا نريد منكم تجنّب أمور ثلاثة فقط:

١ - ما كان موجّها ضد الشاه.

٢ - وما كان ضد إسرائيل.

٣ - والقول المستمر بأنّ الإسلام في خطر.

وعدا هذه، فالخوض والقول فيه مباح لكم.

وصل الخبر إلى مسامع الإمام، فتفضّل سماحته بإلقاء خطاب تناول فيه إسرائيل بما لا يقل عن عشرة أسطر، قال فيها: «إسرائيل لا ترغب في وجود القرآن في هذه المملكة، إسرائيل لا تريد رجال الدين في هذه المملكة، وإنها لا تريد إلاّ القضاء على المسلمين في هذه المملكة، وتريد الهلاك والدمار لهذا الشعب، وتريد أن تشلّ الزراعة وتقضي على التجارة».

---

(١)- الإمام الخميني قدوة، مصدر سابق، ص٥.

ثم توجّه بخطابه إلى الشاه قائلا: «أيها المسكين! التعس الحظّ، لقد انقضى من عمرك خمسا وأربعين عاما، فتأمّل قليلا وتدبّر أمرك، أنا أحذّرك من أن تصل إلى مصيرك السيّئ عندما يتخلّى عنك أولياء أمرك وأرباب نعمتك، ويطيحون بك، وآنذاك يحتفل الشعب ويعلن فرحته بسقوطك»[1].

لقد أعلن الإمام(ره) انتهاء عهد التقيّة، وأعلن بيانا أذاعه على علماء الحوزات العلميّة خاصّة، والمسلمين في إيران، دعاهم فيه إلى أن لا يلوّثوا منابرهم بالمهادنة، وأن يجعلوا من تلك المنابر مراكز تفضح الشاه ونظامه، وقال: إنّ التقيّة حرام، وإظهار الحقائق واجب مهما كانت النتيجة، ولا ينبغي على فقهاء المسلمين استعمال التقيّة في المواقف التي تجب فيها التقيّة على الآخرين، إنّ التقيّة تتعلّق بالفروع، لكن حينما تكون كرامة الإسلام في خطر، وأصول الدين في خطر، فلا مجال للتقيّة والمداراة، إنّ السكوت هذه الأيام تأييد لبطانة الجبّار الشاه، ومساعدة لأعداء الاسلام[2].

ومرة جديدة، وقف الإمام بشموخ يصدر عن روحيّة موغلة في التوكّل والثقة بربّها والإيمان بأنّه هو وحده النافع الضارّ دون المخلوقات كافّة:

«ليس لأيّ موجود من الموجودات بدءا من غيب عوالم الجبروت وإلى ما فوقها أو تحتها شيء من القدرة أو العلم أو الفضيلة، وكل ما فيها من ذلك إنّما هو منه - جلّ وعلا -، فهو الممسك بزمام الأمور من الأزل إلى الأبد، وهو الأحد الصمد، فلا تخش من هذه المخلوقات الجوفاء الخاوية الخالية، ولا تُلق آمالك عليها أبدا، لأنّ التعويل على غيره - تعالى - شركٌ، والخوف من غيره - جلّت عظمته - كفر»[3].

إنّ الحياة السياسيّة للإمام(ره) تضجّ بذلك التميز الروحي والرساليّة المعنويّة والتي واجه بها العالم، سيّما القوى العظمى التي كانت قد فرضت

---

[1]- لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)، مصدر سابق، ص١٩٨.

[2]- أحمد حسين أيوب، الإمام الخميني والثورة الإسلامية في إيران - الرواية الكاملة، ط١، الدار الإسلامية، بيروت ٢٠٠٠ م. ص١٢١.

[3]- وصايا عرفانية، (نار الشوق)، مصدر سابق، ص٩٤.

مفهومها المادّي للحضارة على الواقع العالمي من خلال تسخير الإمكانات البشريّة في نزوعها نحو التسلّح التكنولوجي وحيازة أسلحة الدمار الشامل.

وفي هذا السياق، يشدّد الإمام الخميني(ره) في رسالته التاريخيّة إلى آخر زعماء الاتّحاد السوفيتي ميخائيل غورباتشوف في الأوّل من كانون الثاني ١٩٨٩ ميلادي والتي شكلت سابقة غير معهودة في العلاقات الدبلوماسيّة الدوليّة، على أنّ الداء الأساس الذي تسبّب في انهيار المجتمع والسياسة والإنسان هو غياب المعنويّات.

ومن هذا المنطلق دعاه إلى:

١ - ملء الفراغ العقائدي من خلال نقلة حضاريّة إلى المشروع الإلهي، والإيمان بالله مبدأ الوجود والخلقة؛ ذلك أنّ العلاقات بين البشر لن تصبح واقعيّة ومستقرّة، إلاّ من خلال إعادة الدين إلى الحياة، والتخلّي عن محاولات استئصاله من المجتمع.

٢ - التحذير من مغبّة الانقياد إلى النظام الرأسمالي المادّي، فلا فرق بين الماركسيّة والرأسماليّة من هذه الجهة سوى في الشكل الخارجي؛ إذ كلاهما يعاني من التأزّم المادّي، ويستحيل إنقاذ البشريّة بالماديّة التي تقتصر على «الحس» كمعيار للمعرفة، وبالتالي تساوي بين الوجود والمادة، وتؤمن بأنّ ما لا مادّة له فلا وجود له. والحلّ إنّما يكون بالعودة إلى المعنويّات، والإيمان بأنّ المعرفة لا بدّ أن يقترن فيها الحس والعقل، وأنّ الوجود لا بدّ أن يشمل عالمي الغيب والشهادة.

يقول الإمام في رسالته التاريخيّة: «إنّي أجد أنّ من الضروري أن أضع جملة من الحقائق أمام أنظاركم - لو أردتم ذلك - لا سيّما ما يخصّ عقدة الاقتصاد الاشتراكيّة والشيوعيّة من خلال التودّد إلى مركز الغرب الرأسمالي الذي لا أراه علاجا لمشاكل مجتمعكم بقدر ما أراه اقترافا لخطأ سوف يضطر الذين سيأتون بعدكم لمحوه».

ويقول(ره): «إذا ما كانت الماركسيّة قد رحلت إلى أسوأ مراحلها سواء

اجتماعيًا أو على مستوى السياسات الاقتصاديّة، فإنّ الرأسماليّة غاصت كذلك في مستنقع يعجزها عن التقدّم هي الأخرى. إنّ الحقيقة لا بدّ من مواجهتها، إنّ المشكلة الرئيسة التي تواجه بلدكم لا تتمثّل في الملكيّة الفرديّة أو الحريّة أو الاقتصاد، إنّ مشكلتكم تتمثّل في غياب الإيمان بالله».

إنّ الشيوعيّة لم تعد تلبي أيّ حاجة من الحاجات الواقعيّة للإنسان، لأنّها مذهب ماديّ، ولا يمكن للماديّة أن تنقذ البشريّة من أزمة التنكّر للمعنويات. وثمّة توقّع بنهاية الاتّحاد السوفياتي، وأنّه يجب البحث عن الماركسيّة في متاحف التاريخ. فالحلّ هو بالعودة إلى الله؛ ذلك أنّ المشكلة ليست في التملّك والاقتصاد والحريّة.. وإنّما في عدم الإيمان بوجود الله، وهي المشكلة التي جرَّت الغرب إلى الإنهيار الأخلاقي.

٣ - الدعوة إلى دراسة الإسلام، والقيم العالية السمحاء التي امتاز بها الإسلام بدقّة وجديّة:

«دعني أدعوك لدراسة الإسلام بجديّة، ليس لسبب أنّ الإسلام والمسلمين قد يكونون بحاجة لكم، بل إنّ الإسلام رفع ومجّد القيم الكونيّة التي يمكن لها أن تقدّم الراحة والخلاص لكل الأمم فضلا عن التخلّص من مشاكل البشريّة».

وقد شخّص الإمام(ره) الحلّ لمشكلات البشريّة بوضوح كبير، وذلك باتّباع الدين الإسلامي:

«إنّ فهما حقيقيًا وصادقا للإسلام قد يساعدكم على خلاصكم من مشكلة أفغانستان وباقي المشاكل الأخرى، وخلاصة لهذا الموضوع فانّي أعلن وبصراحة أنّ جمهوريّة إيران الإسلاميّة كونها تمثّل القاعدة الأقوى للإسلام في العالم قادرة بسهولة على ملء فراغ الإيمان الديني في مجتمعكم، وفي مجمل الأحوال فإنّ بلادنا كما كانت في الماضي، كذلك اليوم، تقدّر وتحترم الجيران الطيّبين والعلاقات الثنائيّة».

٤ - التمسّك بنموذج خاص في إقامة العلاقات بين الأمم، قوامه التواصل البنّاء بعيدا عن المصلحيّة الضيّقة.

يروي الشيخ جوادي آملي، رئيس الوفد الرسمي الذي كلّفه الإمام بتسليم رسالته إلى غورباتشوف في موسكو، أنّ الرئيس السوفياتي، بعدما أصغى بكل انتباه ودبلوماسيّة لترجمة الرسالة، علّق مازحا: لقد دعانا الإمام الخميني إلى دين الإسلام، فهل يمكن أن ندعوه نحن إلى عقيدتنا؟!. وأضاف: إنّ الدعوة تعتبر نوعا من التدخّل في شؤون بلد آخر، لأنّ كل بلد حرّ ومستقل في اختيار عقيدته. فأجابه الشيخ آملي بقوله: إنّ مضمون رسالة الإمام هو الدعوة إلى التوحيد، وهذه الدعوة ترتبط بروحكم، لا ببلدكم.

وصلت الرسالة، لكنّ حكمة الرسالة لم تصل، فقد أبدت الحكومة السوفياتيّة ردّ فعل يشوبه الاستنكار إزاء مبادرة الإمام الخميني(ره). يقول الإمام(ره) تعليقا على ذلك: «لقد كنت أريد أن أفتح له بابا إلى عالم الغيب»[1].

عاش الإمام(ره) هموم الرسالة في كل حركاته وشؤونه الفرديّة والعامّة، ولم يكن يخشى أحدا سوى الله - تعالى -، تحدوه ثقة عميقة بربّه، فيعيره جمجمته، ويمضي بكل اطمئنان إلى حيث يجد مصلحة الإسلام؛ وحين يُسئل الإمام(ره) عن سبب اختياره لتوقيت العودة من المنفى إلى إيران، يجيب بالقول: «تلقّيت قبل شهر من عودتي رسالة من الرئيس الفرنسي ديستان يشيد بالثورة ويقول بأنّ لديه معلومات بأنّ طائرتي سيجري إسقاطها في حال العودة إلى طهران. وبعد أسبوعين وصلت رسالة من الرئيس الأميركي بنفس المعنى. وفي اللحظة التي وصلت فيها رسالة مناسبة من بريجينيف، حاكم الإتّحاد السوفياتي، قرّرت العودة وعدم الاكتراث لهذا التهديد المبطّن، واثقا من أنّه إذا اجتمعت آراء هؤلاء الشياطين الثلاثة على أمر، فإنّ مصلحة الإسلام تكون في الأمر المعاكس.

صمّم الإمام على العودة إلى إيران لإقامة حكم الله على الأرض، فجمع

---

[1]- انظر: توضيحات حول رسالة الإمام إلى غورباتشوف، جوادي آملي، مجلة الثقافة الإسلامية، دمشق، العدد/ ٤٢، رمضان شوال، ١٩٨٩م. ص١٤ - ١٨.

أصحابه والصحفيّين ووضعهم أمام المسؤوليّة الخطيرة إذا أرادوا العودة؛ ذلك أنّ الطائرة يمكن أن تتعرّض للتدمير، وهو ما أدّى إلى تراجع العشرات خصوصا من الصحفيّين، أما هو فدَلَفَ إلى الطائرة ونام نوم المطمئنّين لقضاء الله»[1].

لم يكن يرى مؤثّرا في الوجود سوى الله - تعالى -، وإنّ هذه المقولة سوف تجد سبيلها إلى الحياة السياسيّة في العصر الحديث فقط مع عودة الإمام(ره)، وحين توجهت الطائرة التي تقلّه من باريس إلى طهران، كان العالم بأجمعه يراقب المشهد، حينذاك سأله أحد الصحافيّين بدافع الفضول: ما هو إحساسك في هذه اللحظات؟ فأجاب الإمام:

«لاشيء»..

[1]- مقدمتان على شرح مصباح الهداية، مصدر سابق، ص٨، هامش٢.

المصـادر

- القرآن الكريم

- الإمام الخميني(ره)، **الآداب المعنويّة للصلاة**، ترجمة أحمد الفهري، ط٣، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ٢٠٠٤م.

- **الاستقامة والثبات في شخصيّة القيادة**، ترجمة الشيخ كاظم ياسين، ط٢، دار الوسيلة، بيروت ١٩٩٥م.

- أحمد حسين أيوب، **الإمام الخميني والثورة الإسلاميّة في إيران - الرواية الكاملة**، ط١، الدار الإسلاميّة، بيروت ٢٠٠٠ م.

- سمير سليمان، **الإمام الخميني والمشروع الحضاري الإسلامي**، ط١، دار الوسيلة، بيروت ١٩٩٣م.

- علي شريعتي، **الأمة والإمامة**، ترجمة وتحقيق حسين علي شعيب، ط١، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ٢٠٠٦م.

- رحيميان، **أنوار العروج**، إعداد سفارة الجمهوريّة الاسلاميّة الايرانيّة، ترجمة علي شرف الدين - بيروت.

- العلامة المجلسي، بحار الأنوار، تحقيق يحيى العابدي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٣م.

- **التربية والمجتمع «مظاهر عينيّة من فكر الإمام الخميني(ره)»**، إعداد مركز الإمام الخميني الثقافي، ط١، بيروت، ٢٠٠١م.

- الإمام الخميني، **تعليقات على شرح فصوص الحكم ومصباح الأنس**، ط١، رمضان ١٤٠٦ هـ. ق. مؤسسة باسدار اسلام.

- عبد الله جوادي آملي، **توضيحات حول رسالة الإمام إلى غورباتشوف**، مجلة الثقافة الإسلاميّة، دمشق، العدد ٢٤، رمضان شوال، ١٩٨٩م.

- السيد البروجردي، **جامع أحاديث الشيعة**، ١٤٠٧هـ، منشورات مدينة العلم، آية الله العظمى الخوئي، قم، إيران.

- الإمام الخميني(ره)، **سر الصلاة**، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدوليّة، ط١، ١٩٩٥م.
- الإمام الخميني(ره)، **صحيفة الثورة الإسلاميّة**، نص الوصيّة السياسيّة، وزارة الإرشاد الإسلامي، طهران.
- **العارف الكامل**، ترجمة كمال السيد وأحمد العبيدي، تحقيق وتأليف مؤسسة العلوم والمعارف الإسلامية، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م.
- الشيخ محمّد حسن رحيميان، في ظلال الشمس، ترجمة حسن عز الدين، ط٢، بيروت، دار الوسيلة، ١٩٩٥.
- قبسات من حياة الإمام، إعداد لجنة إمداد الإمام الخميني(ره) - القسم الثقافي، ط١، بيروت، ١٤١١ هـ.
- **القضيّة الفلسطينيّة في كلام الإمام الخميني(قده)**، إعداد سفارة الجمهوريّة الاسلاميّة الايرانيّة دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.
- الشيخ الكليني، **الكافي**، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، ط٤، ١٣٦٥ ش، دار الكتب الإسلاميّة - طهران.
- الإمام الخميني(ره)، **كتاب البيع**، مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان، ايران، قم.
- **الكلمات القصار**، مؤسسة نشر وتنظيم تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدوليّة، ط١، دار الوسيلة، بيروت، ١٩٩٥ م.
- **الكوثر**، مجموعة من خطابات الإمام الخميني(س)، إعداد مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدوليّة، ط١، طهران ١٩٩٦م.
- **لمحات من حياة الإمام الخميني(ره)**، مجموعة من الكتاب، تج لجنة الغدير، ط١، بيروت ٢٠٠٤م.
- **مؤتمر الجهاد والنهضة في فكر الإمام الخميني على ضوء التحديات المعاصرة**: كلمة السيّد حسن نصر الله بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩٩٩م.
- فخر الدين الطريحي، **مجمع البحرين**، تحقيق أحمد الحسيني، ط٢،

١٩٨٣، بيروت مؤسسة الوفاء.

- ابن أبي شيبة الكوفي، **المصنف**، تحقيق وتعليق سعيد اللحام، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٩م.

- جلال الدين الأشتياني ومحمد صادق فضل الله، **مقدمتان على شرح مصباح الهداية**، اشراف المعهد الإسلامي للمعارف الحكميّة، ط١، ٢٠٠١م.

- **مكانة المرأة في فكر الإمام الخميني(س)**، إعداد مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني(ره) - الشؤون الدوليّة، ط١، طهران ١٩٩٦ م.

- منهجيّة الثورة الإسلاميّة «**مقتطفات من أفكار وآراء الإمام الخميني(ره)**»، مؤسسة نشر وتنظيم تراث الإمام الخميني(س) الشؤون الدوليّة.

- محمد الريشهري، **ميزان الحكمة**، ط١، دار الحديث.

- **نهج الإمام في بيان القائد**، ط١، بيروت، ١٩٩٨م.

- الإمام الخميني(ره)، **وصايا عرفانيّة**، ط١، بيروت، ١٩٩٨م، مركز بقيّة الله الأعظم(ع).